الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

تخصص دراسات مقارنة

جامعة بوبكر بلقايد * تلمسان *
كلية الآداب و اللغات
مكتبة اللغة و الأدب العربي

سجل تحت رقم .....
التاريخ 2013
الرقم Facult 02193

مذكرة تخرج مقدمة لنيل شهادة الماستر

الموسومة بـ:

الشعر بين الوظيفة الأخلاقية والمتعة الجمالية في النقد العربي القديم

إعداد الطالب:

عراب محمد

تحت إشراف:

أ.د: شريفي عبد اللطيف

السنة الجامعية: 2011 - 2012

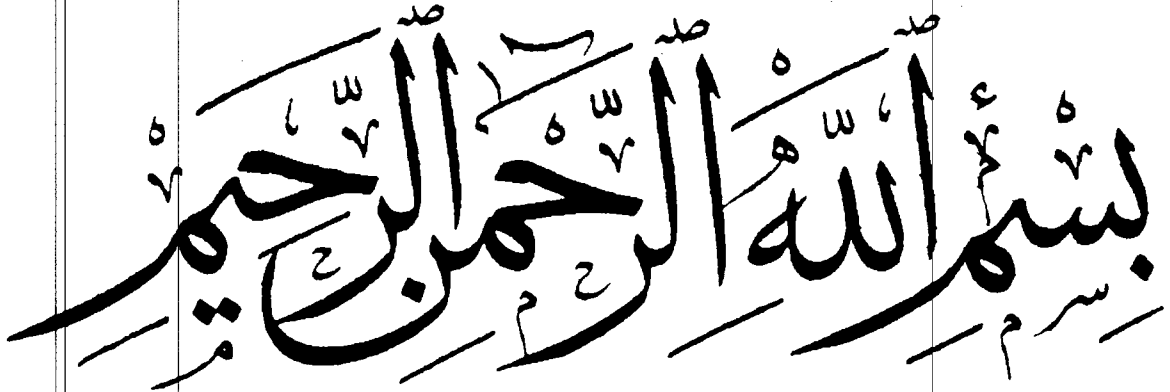
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــداء

أهدي ثمرة جهدي إلى أغلي اثنين على وجه الأرض

وأعزّ إنسانين على قلبي وحياتي

حفظهما الله

إلى من ملأت نفسي نورا وقلبي سرورا وأحاطتني بالحبّ والحنان

والصّدق والإخلاص.

أمّي الغالية

إلى رمز العطاء والتضحية والوفاء.

أبي العزيز

إلى كلّ إخوتي وأخواتي.

إلى كلّ أصدقائي.

كلمة شكر

إن الشكر لله وحده لا شريك له.

وإذا كان من كمال الفضل شكر ذويه فإنني أجد نفسي عاجز عن تقديم الشكر إلى أستاذي الدكتور شريفي عبد اللطيف فإليه أقدم أسمى آيات الشكر والعرفان والتقدير.

كما أشكر أساتذتي الكرام أعضاء المناقشة الذين تجشموا عناء هذا البحث المتواضع، وسيثرونه إن شاء الله بنصائحهم القويمة وتوجيهاتهم السديدة.

مقدمة

للنّقد الأدبي اتّجاهات متعدّدة ظهرت على مرّ العصور الأدبية، فمنها الاتّجاه النّفسي الذي يهتمّ برصد خطوات الإبداع لدى الفنّان وتأمّل عالمه الدّاخلي وطبيعة استجابة نفوس المتلقين له، فكان لزاما عليه – الاتّجاه النّفسي ـ دراسة حياة المبدعين باعتبارها وسيلة لفهم اتّجاهاتهم وتفسيرها.

ومنها الاتّجاه التّأثري الذي هو نتاج الفردية والشّعور بالذّات، وهو يقوم على وصف أثر الأدب في نفس النّاقد.

ومنها الاتّجاه الاجتماعي، الذي يؤمن بأنّ الفنّ لا ينشأ من فراغ لكنّه نتاج مجتمع معيّن، وزمان معيّن، فكان لزاما على النّاقد الاجتماعي التّعرف على بيئة الأديب وأثره في أدبه ومدى استجابة الأديب لهذه البيئة الاجتماعيّة.

ومن بين هذه التّيارات النّقدية الاتّجاه الجمالي الشّكلي الذي يرى النّص متكامل الأجزاء، وينادي بتأثير عناصره بعضها ببعض بمعزل عن الأفكار الدّينية أو الأخلاقيّة أو النّفسيّة...الخ.

وكذا اتّجاه النّقد الأخلاقي الذي يقوم على مناهج السّلوك والأخلاق، ويهدف إلى جعل الفّن في خدمة المجتمع بما يقدّمه من تهذيب وإصلاح وإرشاد، هذين الاتّجاهين اللذين وعلى الرّغم من أنّهما أقدم التّيارات النّقدية وأطولها تاريخيّا، إلا أنّهما لم يظفروا بدراسة حديثة مستقلّة وشاملة تجمع أطرافهما المتناثرة بين الكتب، فسعيت إلى القيام بهذه الدّراسة منطلقا من طرح هذه الإشكاليات: باعتبار أن الاتّجاه الجمالي الشّكلي ينادي بجمالية القالب على غرار الاتّجاه الثّاني - الأخلاقي - الـذي يـنـادي

بجماليّة وأخلاقيّة المضمون، هل يمكن الفصل بين الفنّ والأخلاق؟ وما مكانة هذين الاتّجاهين في النّقد العربي القديم؟ وأيّ الاتّجاهين أكثر رواجا؟ بل أين تكمن أخلاقيّة الشّعر؟ وأين تكمن جماليّته الفنّية؟

هذه وغيرها من التساؤلات حاولت الإجابة عنها خلال هذا العمل معتمد في ذلك على المنهج التاريخي الوصفي خاصّة في الجانب الأخلاقي وذلك سعيا نحو تتبع مسار النّقد الأدبي، وتوضيح تدرّج الأحكام النّقدية، أمّا في الجانب الفنّي انتهجت منهجا فنيّا في عرض القضايا الفنيّة، مع ترتيب تاريخي للشخصيات النّاقدة.

ومن خلال ما ذكرته من بواعث يمكن أن أقول: إنّ السّبب الرّئيسي في اختياري هذا الموضوع، هو قلّة البحوث التي تعرّضت إلى دراسة هذين الاتّجاهين دراسة حديثة مستقلة، وأيضا لكون هذا الموضوع يخدم اختصاصي.

ولقد صادفتني بعض الصّعوبات أثناء انجاز هذا البحث، أهمّها صعوبة تحديد الموضوع بدقّة، وأعترف أنّي أحسست بالصّعوبة عندما غصت في هذا البحث، ولكنّي حاولت جاهدا العمل والتّركيز لإخراجه في أحسن وأنسب صورة معتمدا على مجموعة من المصادر والمراجع التي توفرت لديّ.

وقد اشتمل بحثي على مدخل وثلاث فصول، وكل فصل ينقسم إلى ثلاث مباحث، تناولت في المدخل مفهوم الشّعر في تاريخ النّقد العربي القديم ونشأة النّقد الأدبي عند العرب، فعرضت جملة من صوره لكي تكون أرضيّة للانطلاق في الحديث عن الآراء النّقدية التي جاءت في العصور المتوالية.

خصّصت الفصل الأوّل للحديث عن مفهوم الأخلاق والجمال في النّقد العربي القديم، وقسّمته إلى ثلاث مباحث، تطرّقت في المبحث الأول للحديث عن مفهوم الأخلاق في النقد العربي القديم، وفي المبحث الثاني وضّحت مفهوم الجمال، أمّا في المبحث الثالث فعرضت بعض القيم الجمالية للشّعر في النّقد العربي القديم.

أمّا الفصل الثاني تناولت فيه النّقد العربي القديم والوظيفة الأخلاقية للشّعر، تحدّثت في المبحث الأوّل والثّاني عن موقف الإسلام من الشّعر، مبينا في العناوين الجزئية موقف القرآن من الشّعر، ورسالة هذا الفنّ – الشّعر ـ الأخلاقية في نظر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ومن جاء من بعده من الصّحابة والتّابعين له، وأمّا في المبحث الأخير، تعرّضت لجملة من آراء نقّاد العصر العبّاسي، الذين رأوا أن جودة الشّعر تكمن في مدى تماشيه وما أملته العقيدة الإسلاميّة.

أمّا الفصل الثّالث، تناولت فيه النّقد العربي القديم والمتعة الجمالية للشّعر، تحدّثت في المبحث الأوّل عن بعض الصّور النّقدية الفنّية في كل من عصري صدر الإسلام وعصر بني أميّة، أمّا المبحث الثاني تناولت فيه واحدة من القضايا الفنّية التي عرفها النّقد في العصر العبّاسي، إنها قضيّة "اللّفظ والمعنى" فعرضت جملة من آراء أبرز النّقاد الذين خاضوا في هذه القضيّة. وتحدّثت في المبحث الثالث عن "قضيّة النّظم" التي ما هي إلا تكملة للقضيّة الأولى باعتبارها أيضا عمليّة نقديّة فنّيّة مهمّة جدّا.

ولم يخلو بحثي كأيّ بحث أكاديمي من خاتمة، فكانت نهاية البحث عبارة عن خلاصة موجزة ذكرت فيها أهمّ الملاحظات المسجّلة في ثناياه.

وبعد، فإنّ دواعي العرفان بالجميل وردّ الفضل إلى أهله وذويه يقتضيان منّي التّقدم بالشّكر إلى أستاذي المشرف: د. شريفي عبد اللطيف، وكل من مدّ لي يد العون بكتاب أو بنصيحة.

وأخيرا فإنّني لا أدعي لنفسي الكمال والتمام وحسبي أنّي اجتهدت في معالجة هذا الموضوع قدر المستطاع، وأرجو أن أكون سددت وقاربت، والله أسأل سداد الرأي وتحقيق النّفع كما أرجو منه التّوفيق والقبول.

تلمسان في يوم: 2012/06/09

عراب محمد

مدخل

ومن الجوانب النّقدية التي عرفت في تلك الفترة، التّسميات والألقاب التي تطلق على الشعراء، وهي أسماء لم تطلق من عدم، إنّما كانت تطلق بناء على ميزة يمتاز بها شاعر عن غيره، فتكون إذا نتاجا لحسّ نقدي وتذوق جمالي للشّعر "فالمهلهل لقب بهذا الاسم لأنه هلهل الشعر أي أرقه وحسّنه، والمحبّر: سمي كذلك لتحبيره شعره وتزيينه، والمرقّش لتحسينه الشعر وترقيشه أي تنميقه، والنابغة لنبوغه وتفوقه."[1]

وهكذا إذن مثل الشّعر الجاهلي، أدبا إنسانيا قوي الصلة بالفطرة و البكارة والصفاء والنّقاء، وهو يستمد جماله وتأثيره من روح تلك الينابيع الثرية بالتلقائية والعفوية الصحيحة، ويوحي بجمالها وقوّة تماسكها بعناصر سلامة السّليقة والطبع، ومادام الشاعر متمسّكا بتلك السّليقة والطبع، كان لزاما على الناقد هو أيضا أن يخضع لنفس الشروط الفطرية، فيستجيب لدواعي فطرته وسليقته في إشارة ذكية وسليقة نافذة بصيرة.[2]

وإذا كانت الأحكام الجماليّة هي الغالبة في تقييم الشعر، فإنّ هذا يعني نفي للمعيار الأخلاقي، إذ يرى الباحث بهجت عبد الغفور أن المعيار الأخلاقي، قد عرفه العصر الجاهليّ ووقع تحت تأثيره الكثير من شعراء هذه الفترة و لعل قصّة امرئ القيس مع أبيه المعروفة والتي تروي لنا " بأن أباه طرده لتعهّره في شعره وتغزله بالنّساء وفحشه"[3] خيرمثال على ذلك.

1- حسين الحاج.النقد الأدبي في آثار أعلامه.المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.والتوزيع. ط1. بيروت.1996 ص109.

2- ينظر عبد الرؤوف أبو السعد.مفهوم الشعر في ضوء نظريات النقد العربي.ص66،67.

3-بهجت عبد الغفور الحديثي.دراسة نقدية في الشعر العربي.المكتب الجامعي الحديث.دط.مصر.2004.ص222

ـ نشأة الشّعر في تاريخ النّقد العربي القديم:

كان النّقد العربي مواكبا للشّعر، إذ ترعرع بين أحضانه، و سار معه جنبا إلى جنب، و من الطبيعي أنّ أيّة حركة أدبية مزدهرة لا بدّ أن تكون مصحوبة بحركة نقدية توجّه خطاها و تقوّم مسارها، فكانت نشأة النّقد الأدبي عند العرب في رحاب الإبداع الشّعري وجنبا إلى جنب مع نموه و تطوره، بحيث كانت كل لحظة إبداع شعري هي ميلاد لقانون نقدي، و عندما ازدهر هذا الفن - الشّعر- ظلّ النقد مرتبطا به، تابعا له في كل مراحل نموه وازدهاره.[1]

هذا النّوع من الأدب – أي الشّعر- لا يمكن الجزم بتحديد نشأته وذلك على حد قول الجاحظ، الذي يؤكّد ذلك قائلا :" فإذا استظهرنا الشّعر وجدنا له - إلى أن جاء الإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام."[2] ليتراوح عمر الشّعر إذن ما بين قرن ونصف أو قرنين من الزمان قبل مجيء الإسلام.

ومن الغريب أن الشّعر العربي القديم نشأ في حضن نظرية استمداد الإلهام من منبع متعال عن البشر، فقد قرن الشعراء أنفسهم بالجنّ، واعتقد كل منهم أن له من أفراد الجن قرينا هو الذي يؤلف الشعر ثم يلقيه غلى لسانه.[3]

1- ينظر عبد الرءوف أبو السعد.مفهوم الشعر في ضوء نظريات النقد العربي.دار المعارف.ط1 .القاهرة د ت.ص61.

2- الجاحظ.الحيوان.ج1.دار الكتب العلمية.ط1.بيروت.1998.ص53.

3- ينظر:صلاح عبد الصبور.قراءة جديدة لشعرنا القديم.دار العودة.ط3.بيروت.1982.ص13،14.

ويؤكّد إحسان عباس : " بأن الشاعر متصل بشيطان خاص به يلهمه الشّعر، دون تحديد للعدد وإذا كان لكل شاعر شيطان كان عددهم بعدد الشعراء ."[1]

وقد حظي الشّعر بمكانة مرموقة، فتنوعت بناء على ذلك أغراضه وموضوعاته لتشمل الجوانب الحياتية، وحسبنا تلك الشهادة التي مُنحت له على أنّه لم يزل : "ديوان العرب في الجاهليّة، لأن العرب كانوا أمّيين، ولم تكن الكتابة فيهم إلا لأهل الحيرة ومن تعلم منهم، فإنّما حفظت مآثرها وأخبار أوائلها ومذكور أحسابها و وقائعها ومستحسن أفعالها ومكارمها بالشّعر الذي قيل فيها ونقلته الرّواة عن شعراءها."[2]

نستخلص من هذا النص أن الشّعر الجاهلي كان ذا رسالة سامية ، تمثلت في حفظ المآثر والأحساب، وقد أشار ابن رشيق في كتابه (العمدة)، إلى أن أيّة قبيلة من قبائل العرب إذا ما نبغ فيها شاعر: "أتت القبائل فهنّأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمعت النّساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس، وتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج."[3]

و الملفت للنظر أن العرب لم تكن تقيم الشّعر من جانبه الفنّي فحسب، وإنّما من خلال أدائه لرسالته المنوطة به ، لتبقى المكانة التى حظي بها الشاعر ملكا له ، طالما بقي

1- إحسان عباس.تاريخ النقد الأدبي عند العرب.دار الشروق للنشر والتوزيع.ط1.عمان.2001.ص16.

2- ابن وهب.البرهان في وجوه البيان.تحقيق: أحمد مطلوب.خديجة الحديثي.مطبعة العالي.ط1.بغداد 1967.ص167.

3- ابن رشيق العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد.ج1.دار الجيل ط1.بيروت.1972.ص65.

على عهده و وفيّا لرسالته، وفي حالة خروجه عنها سعيا نحو التكسّب والتهنّك فإنّه يفقد ما كان له يوما ما ، وبذلك يعلو الخطيب عليه.[1]

ومن أولى الصّور النّقدية في هذه الفترة الزّمنية ، تلك القصة التي تروي لنا موقف أم جندب لشعر علقمة على شعر زوجها ، إذ أتى حكمها ذاك بناء عن توجهها نحو الصورة التي صوّر بها كلا الشّاعران الفرس ، فهذا امرؤ القيس قد صوّر فرسه بذاك الذي لا ينقاد إلاّ بالضّرب والزّجر ، في حين أن علقمة قد صوّره على أنه ذاك الذي يدرك صيده دون عناء ولا ضرب ، فأصدرت أم جندب حكمها بعد إجراء الموازنة بين هاتين الصّورتين.[2]

و لعلّ من أهم النّقاد الذين اشتهروا في الفترة الجاهليّة ، الشّاعر النّابغة الذبياني الّذي كان في نظر أهل عصره و بيئته أقدر الشّعراء على وزن الكلام ، فكانت: " تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ ، فتأتيه الشّعراء فتعرض عليه أشعارها ، ليكون أوّل من أنشده شعره هو الأعشى ميمون بن قيس أبو بصير، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصاري :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضّحى وأسيافنا يقطرن من نجده دما

ولدنا بني العنقاء وابني محـــرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

1- ينظر:وليد قصاب.النقد العربي القديم.نصوص في الاتجاه الإسلامي و الخلقي. دار الفكر. ط1.دمشق . 2005 . ص32.

2- ينظر: أبو الفرج الأصفهاني. كتاب الأغاني. تحقيق لجنة من الأدباء. ج21. دار الثقافة. ط1.بيروت.1981 . ص226،227

فقال له النّابغة :" أنت شاعر لكنّك أقللت جفانك و أسيافك، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك ."[1] فكان الأفضل في رأي النّابغة هو أن يقول حسّان: الجفان والسيوف، بدلا من الجفنات والأسياف التي تدل على القلّة.

ويمكننا أن ندرج ملاحظة أم جندب، و ملاحظة النّابغة ضمن ما يسمى بالنقد المعلّل الّذي علّل "تعليلا يقبله الذوق الإنساني العام ، بل الذّوق الفطري الّذي جبلت عليه بيئتهم فجمال الشعر عندهم راجع إلى وجدان يشعر ويتذوق ، لا إلى عقل يعلّل و يفصّل و يمنطق. والسامع والناقد والراوي، هؤلاء جميعا في درجة متقاربة من الذوق والفهم والقدرة على تتبّع مواطن الجمال. ولهذا جاء نقدهم انعكاسا لتلك الفطرة وأحكاما متقاربة وصادرة عن تأثرهم بالجمال الفنّي حسبما فطروا عليه، ولهذا كانت معرفتهم بالشّعر معرفة تنهض بأدائه لوظيفته الجمالية في ضوء الذوق، وما ركب في طباعهم الفنيّة من شعور وإحساس بجودة الشعر، و رداءته وقصوره عن موافقة أذواقهم، أو تخلفهم عن ذلك."[2]

وإن كان هناك بعض الصّور النّقدية الجاهلية، التي تدل على نقد الشّعر نقدا معللا، فإن هناك صورا نقدية أخرى تتضمّن أحكاما نقديّة خالية من التعليل، منها ما وجدناه عند النّابغة الذبياني فممّا وَصَلَنَا عنه أنّه: " أنشده الأعشى، ثم حسّان بن ثابت، ثم أنشدته الشّعراء، ثمّ أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد:

1- أبو عبيد الله بن موسى المرزباني.الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر تحقيق محمد حسين شمس الدين.ج11.دار الكتب العلمية.ط1.بيروت.1995.ص76.

2- ينظر:عبد الرؤوف أبو سعد.مفهوم الشعر في ضوء نظريات النقد العربي.ص79.

وإنّ صخرا لتأتم الهداة به كأنّه علم في رأسه نار

فقال: والله لو أنّ أبا بصير أنشدني ألفا لقلت إنّك أشعر الجنّ و الإنس

فقام حسان وقال: والله لإني أشعر منك و من أبيك.

فقال له النّابغة: يا بن أخي، أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كاليل الذي هو مدركـــي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

خطأ طيف جحن في جبال متينة تمـــد بهـــا أيد إليك نـــوازع

فخنس حسان لقوله."[1] فلا وجود لأيّ تعليل في تفضيل النّابغة لشعر الخنساء على بقية الشعراء الحاضرين ما عدا الأعشى، وهذا ما أزعج حسان وجعل النابغة يدافع عن موقفه بذكر بيته الذي تفوق فيه، و يطق عبد الرؤوف أبو السّعد على ذلك بأن النابغة قد رضى عن الأعشى والخنساء لأنّهما توافقا مع ذوقيهما وذوق مجتمعهما. أمّا الأعشى فإنّه قد وقف على الأطلال، فوافق الشّكل الفني للشّعر واعترف بجماليات الفن الشّعري.

والخنساء هي الأخرى كانت بكّاءة، و قد أحسنت حينما جعلت القيم العربية الأصيلة محورا للفقدان كأنّها تعتز بكل إنسان عربي حينما تجعل قيمه موضع رثائها، وهو في الحقيقة فخرها فهو رثاء وبكاء على صخر وفخر واعتزاز بالمروءات العربية وقيم المجتمع وعاداته وتقاليده، ممّا جعلها في رثائها محلّ رضا من ذوق ناقدها وأذواق مجتمعها.[2]

1- أبو الفرج الأصفهاني الأغاني ج11 ص6

2- ينظر عبد الرؤوف أبو السعد.مفهوم الشعر في ضوء نظريات النقد العربي.ص72

ومن الجوانب النّقدية التي عرفت في تلك الفترة، التّسميات والألقاب التي تطلق على الشعراء، وهي أسماء لم تطلق من عدم، إنّما كانت تطلق بناء على ميزة يمتاز بها شاعر عن غيره، فتكون إذا نتاجا لحسّ نقدي وتذوق جمالي للشّعر "فالمهلهل لقب بهذا الاسم لأنه هلهل الشعر أي أرقه وحسّنه، والمحبّر: سمي كذلك لتحبيره شعره وتزيينه، والمرقّش لتحسينه الشعر وترقيشه أي تنميقه، والنابغة لنبوغه وتفوقه."[1]

وهكذا إذن مثل الشّعر الجاهلي، أدبا إنسانيا قوي الصلة بالفطرة و البكارة والصفاء والنّقاء، وهو يستمد جماله وتأثيره من روح تلك الينابيع الثرية بالتلقائية والعفوية الصحيحة، ويوحي بجمالها وقوّة تماسكها بعناصر سلامة السّليقة والطبع، ومادام الشاعر متمسّكا بتلك السّليقة والطبع، كان لزاما على الناقد هو أيضا أن يخضع لنفس الشروط الفطرية، فيستجيب لدواعي فطرته وسليقته في إشارة ذكية وسليقة نافذة بصيرة.[2]

وإذا كانت الأحكام الجماليّة هي الغالبة في تقييم الشعر، فإنّ هذا يعني نفي للمعيار الأخلاقي، إذ يرى الباحث بهجت عبد الغفور أن المعيار الأخلاقي، قد عرفه العصر الجاهليّ ووقع تحت تأثيره الكثير من شعراء هذه الفترة و لعل قصّة امرئ القيس مع أبيه المعروفة والتي تروي لنا " بأن أباه طرده لتعهّره في شعره وتغزله بالنّساء وفحشه"[3] خيرمثال على ذلك.

1- حسين الحاج.النقد الأدبي في آثار أعلامه.المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.والتوزيع. ط1. بيروت.1996 ص109.

2- ينظر عبد الرؤوف أبو السعد.مفهوم الشعر في ضوء نظريات النقد العربي.ص66،67.

3-بهجت عبد الغفور الحديثي.دراسة نقدية في الشعر العربي.المكتب الجامعي الحديث.دط.مصر.2004.ص222

الفصل الأول:

" مفهوم الأخلاق والجمال في النقد العربي القديم "

أولا: مفهوم الأخلاق في النقد العربي القديم.

ثانيا: مفهوم الجمال في النقد العربي القديم.

ثالثا: القيم الجمالية في الشعر في النقد العربي القديم.

أوّلا: مفهوم الأخلاق في النقد العربي القديم:

يعدّ مفهوم الأخلاق من المفاهيم الشّائكة في الدّراسات الإنسانية لأنّه مرتبط بثقافة المجتمع و عاداته و تقاليده و معتقداته، و شتى المؤثرات الوافدة و المتغيرة فيه و هي أمور يختلف فيها مجتمع عن آخر. فالمجتمع الإسلامي له قيمته و أخلاقه الخاصّة به التي تخالف غيره من المجتمعات. والبيئات الإسلامية نفسها تختلف بسبب عوامل تاريخية واجتماعية وثقافية موروثة أو وافدة، ولكنّها تضبط نفسها قدر طاقتها بمدى فهمها وارتباطها بالإسلام نفسه.

ويتمثّل ذلك في اختلاف الاتّجاهات الفكرية والنفسية والعقائدية إلى جانب السّمات المتصلة بالعادات والتقاليد، وتبدأ بالنظر في المعنى اللغوي للأخلاق باعتباره أصلا في الفهم.

1- المعنى اللّغوي:

ورد مفهوم الأخلاق في المعنى اللغوي تحت عدّة معان:

أ- الدّين، الطّبع، السجيّة، والمروءة.

قال ابن الأعرابي (الخلق المروءة، والخلق الدين)[1] والخلق، بضم اللام وسكونها الدين والطبع السجية.[2]

1- تاج العروس للزبيدي. مادة خلق 6/ص336.

2- ابن منظور. لسان العرب. مادة خلق.

و فلان يتخلق بغير خلقه أي يتكلفه، قال سالم بن رابصة:

يَا أَيُّهَا المُتَحَلِي غَيْرَ شِيْمَتِهِ   إِنَّ التَّخَلّقَ يَأْتِي دُونَهُ الخُلُقُ

ب ـ السّلوك:

في الحديث الشّريف: "مِن أَكْثَر مَا يُدْخِلُ النّاسَ الجَنّةَ تَقْوَى اللهِ وَ حُسْنُ الخُلُقِ"[1] وقوله: "أَكْمَلُ المُؤمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُم خُلُقًا"[2] وقوله: " إِنّ العَبْدَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصّائِمِ القَائِمِ"[3] وفي حديث عائشة، رضي الله عنها: "كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ" أي كان متمسكا به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف."[4]

ولم يقتصر الحديث عن الأخلاق الفاضلة والدّعوة إليها على القرآن والسنة أو على كتابات المفكرين والفلاسفة، بل أيضا الشّعراء في مختلف العصور، كانوا يدعون إلى الأخلاق الفاضلة في أشعارهم، فهذا زهير بن أبي سلمى في العصر الجاهلي يصف سيدي مرة وعشيرتهم بالكرم الفيّاض والعطاء الذي لا يعرف

1- شرح السنة للإمام البغوي.طبعة المكتب الإسلامي.13/ص79.حديث رقم 3497.

2- المصدر السابق.13/ص78.حديث رقم 3495.

3- المصدر السابق 13/ص82.حديث رقم 3501.

4- ابن منظور. لسان العرب. مادة خلق.

حدودا:[1]

هُم خَيْرُ حَيٍّ فِي معدٍّ علمتهم لهم نائلٌ في قَوْمِهِم وَ لَهُم فَضْلُ[2]

وهذا يدل على أن العرب في الجاهلية وقبل ظهور الإسلام كان لديهم أخلاق عربية فاضلة يفتخرون بها، فجاء الإسلام و أقرّها ولذلك يقول رسولنا الكريم - صلى الله عليه و سلم - "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ"[3]

فالإسلام دين الأخلاق لأنّه عبارة عن جملة من الأخلاق الكريمة الصالحة للتطبيق في كل مكان و زمان.

وبعد ظهور الإسلام نجد أنه اتّسع مفهوم الأخلاق في الشّعر العربي، لأن الإسلام أضاف إلى الأخلاق العربية الحميدة أخلاقا إسلامية، كما أنه حرّم بعض عادات وأخلاق العرب الفاسدة، كما أن المسلمين أصبحوا يتمثلون هذه الأخلاق الكريمة من أجل إرضاء الله، وليس من أجل التفاخر وكسب السمعة بين الناس، وقد ظهر في صدر الإسلام ارتباط الناس والشعراء -أيضا- بالأخلاق الإسلامية، وتمثلوا قيمه الاجتماعية التي جاء بها، تقول الدكتورة وفاء فهمي السنديوني في هذا:

" وقد عبر الشعراء في صدر الإسلام عن ارتباط الأخلاق بالدين وأكّدوا أن تعاليم الإسلام تسموا بالنفس الإنسانية عن الدينية وتحثّ المسلمين على عمل الخير ويبدوا

1- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى.مطبعة دار الكتب المصرية. ص109. 1363هـ-1944م.القاهرة.

2- نائل: العطاء.هامش الديوان.ص109.

3- السنن الكبرى.الإمام أحمد بن حسين علي البهيقي.10/ص192.دار الفكر.

ذلك في قول أبي الأسود الدؤلي:

وإني لتثنيني عن الجهل والخي   وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حيـاء و إسـلام و تقي وأننـي   كريـم ومثلي قد يضـر وينفـع

فقد عرض أبو الأسود الدؤلي لنوازع النفس الإنسانية، وأنّها قادرة على الخير والشر والنفع والضر، وإنّما الذي يوجّهها إلى الخير وإلى الخلق القويم هو إتباع الإسلام، والالتزام بالتّقوى."[1] وهذا الفرزدق (38 – 110 هـ) في العصر الأموي يمدح احد الولاة بأنه عادل لأنه يتبع سنة النبي صلى الله عليه و سلم:

كَمْ حَلّ عَن عَدْلُ سُنّتهِ   مِنْ مغرمٍ ثقلٍ، ومِن إصرِ[2]

وهذا أيضا - أبو العتاهة (130،210هـ) في العصر العباسي يحث على الإنفاق في سبيل الله ومساعدة الآخرين والتواضع:

وَإذَا اتّسَعْتَ بِرِزْقِ رَبّك فَاجْعَل   مِنْهُ الأَجلَّ لِأوْجهِ الصّدقـاتِ
فِي الأَقْرَبين وَفِي الأبَاعِدِ تَارَة   إنّ الزّكَـاة قَرِينة الصّلـواتِ
وارْعِ الـجـوارَ لأهْلِـه مُتبـرعـاً   بِقَضَاءِ مَا طَلبُوا مِن الحَـاجَاتِ
واخْفض جنَاحك إن رزقت تَسلّطاً   وَارْغَبْ بِنَفْسِكَ عَن هن وَهنات[3]

ونجد ابن دراج القسطلي في الأندلس يهنئ احد الملوك بفتوحاته وواصفا إيّاه بقوة

1- شعراء صدر الإسلام وتمثلهم للقيم الاجتماعية.د:وفاء فهمي السنديوني.ص298.ط1995.2م.القاهرة.

2- ديوان الفرزدق.1/ص293.قدم له وشرحه مجيد طراد.1427هـ-2006م.دار الكتاب العربي.بيروت.

3- أبو العتاهية أخباره وأشعاره.مطبعة جامعة دمشق. ص59-60. 1384هـ-1965م.دمشق.

العزيمة والشّجاعة والحرب والجهاد في سبيل الله:

بعزائم في الرَّوع قحطاني ... تركت ديار الشرك قاعا فدفذا

جرَّدت للإسلامِ فيه صارماً ... عودته ضرب الطّلى فتعودا

وسللت لله فيها سله ... منعت صليباً بعدها أن يعبدا[1]

ولا يكاد ينقطع الشعر عن الأخلاق في العصور الإسلامية المتأخرة، فهذا صفيّ الدين الحلي يصف أحد السلاطين بصدق الوعد و الوفاء:

هو صادقُ الوعدِ لوفائهِ ... نستشهدُ الآيات والترتيلاَ[2]

وبذلك نجد أنّ الأخلاق بعد ظهور الإسلام أصبحت ذات مرجعيّة دينية مستمدّة من القرآن والسنة ويقصد بها رضا الخالق، وأن الحديث عن الفضائل الخلقية في الشعر العربي موجود في العصور، ولكنه في العصر الإسلامي وما بعده قد ارتبط بالدّين ارتباطا وثيقا و كذلك في العصر الحديث.

1- ديوان ابن دراج القسطلي:.منشورات المكتب الإسلامي.دمشق.ط1. ص454.

2- ديوان صفي الدين الحلي.دار بيروت للطباعة والنشر.1403هـ-1983م.بيروت. ص582.

ثانيا: مفهوم الجمال في النقد العربي القديم:

من قديم شغل الجمالُ الناس في كل بقاع الأرض في مفهومه، في موضوعاته، في تفسيره، إلاّ أن ما لم يختلفوا فيه أنه موجود وذو تأثير إيجابي على حياتهم، وبقدر ما خاض فيه الفكر الغربي منذ القديم وقبل الإسلام حتى عصرنا هذا فإنه لم يفِ الجمال حقه، بقدْر ما كان الفكر الإسلامي وعبْر كل مراحله حتى عصرنا هذا وبعده إلى يوم الدين أكثر تحليلا وأعمق فهما للجمال .

1ـ الجمال لغة:

ورد في لسان العرب أن :

الجمال مصدر الجميل، والفعل جَمُلَ، وقوله عزّ وجلّ: { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ }[1] ، أي البهاء والحسن والجمال. والحسن يكون في الخُلُق والخَلْق. وقد جمُل الرجل (بالضمّ) جمالا فهو جميلٌ، والجُمّال (بالضم والتشديد) : أجملُ من الجميل، وجمّلَه أي زيّنه، وجمّلْتها أي زيّنتْها، والتجمّل: تكلّف الجميل. وجمّل الله عليك تجميلا: إذا دعوتَ له أن يجعله الله جميلا حسنا ، وامرأة جمْلاء وجميلة . قال ابن الأثير: والجمال يقع على الصُّور والمعاني ...ومنه الحديث الشريف: " إنّ الله جَميلٌ يُحبّ الجَمَال "، أي حسَنُ الأفعال، كاملُ الأوصاف. والمجاملة: المعاملة بالجميل.[2]

1- سورة النحل.الآية 6.

2- ابن منظور: لسان العرب.ج:11 /ص:12.

وللإمام القرطبي تعريفٌ بديعٌ للجمال ، فقد قال:

" الجمال يكون في الصورة وتركيب الخِلْقة ، ويكون في الأخلاق والعاطفة ، ويكون في الأفـعال :

فأمّا جمال الأخلاق: فكوْنُـها من الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل. وأمّا جمال الأفعال: فهو وجودها ملائمةٌ لمصالح الخلْق، وقاضيةٌ لجلْب المنافع فيهم، وصرْف الشرّ عنهم.

وأمّا جمال الخِلْقة: فهو أمرٌ يدركه البصر، ويُلقيه في القلب متلائما ، فتعْلَقُ به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ، ولا نِسْبتُه لأحدٍ من البشر ، وجمالُ الأنعام والدواب من جمال الخِلْقة ، وهو مرئيٌّ بالأبصار ، موافقٌ للبصائر.

إنّنا حينما نفكر في الجمال، ومجالاته، وصُوره، ومعاييره، ونتخيّل شكْلَ الحياة بدون الجمال والفنون والآداب، وطُغيان القُبْح المتغلغل في كل مجالات حياتنا، والظلم المتفشّي بين الأفراد والجماعات والأمم، وروح السيطرة، وظاهرة الإقصاء، سندرك دون ريب مدى حاجتنا إلى لمسات الجمال للتهدئة، والقضاء على الغلوّ، وإلى التربية الجمالية الشاملة، والمتكاملة لكلّ الأفراد، بدون مراعاة الأعمار، ومراحل السنين؛ وهذا ما أكّده رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حيث ما ترك أيّ نوع من أنواع الجمال إلاّ وقد أشار إليه، وحثّنا عليه، ورغّبنا فيه، وحذّرنا ممّا يُنافيه.

جمال الأخلاق : نراه في قوله صلّى الله عليه وسلّم : " البرّ حُسْن الخُلق . "[1]

1- الإمام القرطبي: الجامع في أحكام القرآن.ج:10 /ص:71.

رواه مسلم. وفي قوله صلى الله عليه وسلَم : " أكْملُ المؤمنين إيمانا أحسنُهم خُلُقًا ." رواه الترمذي، إضافة إلى ما رواه ابن ماجة من أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، سئل:

ما أكْثر ما يُدخِل الجنة ؟ قال: " التّقوى وحُسْنُ الخُلُق ".

أمّا جمال الأفعال: نراه فيما رواه أحمد من أنّ رجلا قال: يا رسول الله، أيّ الناس خيرٌ؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم: " مَنْ طال عُمُرهُ وحَسُن عملُــه." أمّا جمال الخِلْقة: فنراه فيما رواه أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول: " اللهمّ أحْسنتَ خَلْقي فأحْسنْ خُلُقي"[1].

2 ـ الجمال في الاصطلاح:

الجمال ضدّ القبح، وهو الحُسْن والزينة، ومنه الحديث: (إن الله جميلٌ يحبّ الجمال.) أي حُسْن الأفعال، كامل الأوصاف. الجمال حُسْن الشيء، ونضْرته وكماله على وجْه يليق به؛ ومعنى ذلك: أن كل شيء جماله وحُسْنه كامنٌ في كماله اللائق به، فإنْ كانت جميع خصوصياته وكمالاته الممكنة كائنةً فيه، فهو في غاية الجمال، فالخط الجميل هو الذي جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف، وتوازيها، واستقامة ترتيبها، وحُسن انتظامها، فكل شيء له خصوصياته الجماليّة، فما يُجمّل الإنسانَ لا يجمل الحيوانَ ممّا هو من خصوصياته، وما يجمّل فنّ الخط لا يجمّل فن الأصوات، وما يجمّل الأواني ويزخرفها غير ما يجمل الثياب، وهكذا في سائر الموجودات.

1ـ عبد الله محمد عبد المعطي:أطفالنا.دار التوزيع والنشر الإسلامية ط2.

كما أن الجمال في التعريف الاصطلاحي هو ذلك الذي يتّسم بالتناسق، والنظام والانسجام، بحيث يَنِمُّ عن معنى، ويكون له مغزى محدّدٌ، والجمال لا يرتبط في نظر البعض من الفلاسفة وعلماء الجمال، والاجتماع بفكرة السعادة، أو بفكرة الفائدة، أو المنفعة، كما لا تربطه علاقةٌ بالخير والشرّ.[1]

1- د.علي عبد المعطي محمد:مقدمات في الفلسفة.ص:148 دار النهضة العربية .بيروت.

ثالثا: القيم الجمالية في الشعر في النقد العربي القديم:

إن للشعر قيمة معرفية تتمثل في تخليد المآثر " فكل أمة تعتمد في استيفاء مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال."[1]

وكانت العرب تحتال في تخليد مآثرها بالاعتماد على الشعر الموزون، والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها.

"ولم يزل الشعر ديوان العرب في الجاهلية لأنهم كانوا أُميين، ولم تكن الكتابة فيهم إلا لأهل الحيرة ومن تعلم منهم. فإنما حفظت مآثرها وأخبار أوائلها ومذكور أحسابها وواقعها ومستحسن أفعالها ومكارمها بالشعر الذي قِيل فيها ونقلته الرواة عن شعرائها. ولو لا الشعر ما عرف جودُ حاتم الطائي، وكعب بن مامة، وهرم بن سنان، وأولاد جَفْنة"[2]

وقيمة جمالية من قول الجاحظ".... وعلى أن الشعر يفيد فضيلة البيان"[3] ومن قوله أيضا: "كتب الحكماء وما دونت العلماء من صنوف البلاغات والصناعات، والآداب والأرفاق، من القرون السابقة والأمم الخالية، ومن له بقية ومن لا بقية له، أبقى ذكرا وأرفع قدرا وأكثر ردآ، لأن الحكمة أنفع لمن ورثها من جهة الانتفاع بها، وأحسن في الأحدوثة، لمن أحب الذكر الجميل."[4]

1- الجاحظ.الحيوان.ج1/ص71.

2- نقد النثر "المنسوب لقدامة": ص79

3- الجاظ.الحيوان.ج1/ص72.

4- المصدر السابق.ج1/ص73.

إذن يتضح لنا مما سبق أن للشعر قيمتين: معرفية وجمالية، مشتركتان في الغاية النّفعيّة، وهما غير منفصلتين لأنه " في أيّ عمل أدبي يوجد تناغم بين مشاعر الفنان والطبيعة ويعمد في تجربته الفنيّة إلى أن يشكل بالألفاظ بنية يختلط فيها العنصر المعرفي بالقيمة الجمالية، وتصل إلينا ممارسة فنية إبداعية تتضمن دوالها ـ كإشارات لغوية ـ تصوره الذي يحس فيه نفسه ويكون على الناقد حينئذ أن يضعنا وجها لوجه أمام هذه البنية، منسحبا في أثناء تردده بين أدوات الصياغة والموضوع بالتقمص الوجداني."[1]

ومن القيم الفنيّة والجماليّة نذكر:

1-القصد:

إذا كان الشعر " شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا "[2] وأنه " لا بد للمصدور من أن ينفث "[3] فإنه لا يستحق من أن نسميه شعرا حتى تصاحبه النيّة والقصد، لأن القصد سمة ضرورية لتحقيق الجمال، وبها ينتفي العبث ويسلم الموضوع الجمالي.

لذلك يقول [الجاحظ] : "ولو أن رجلا من الباعة صاح: من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات وكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام.

1- الدكتور/احمد كمال زكي: النقد الأدبي الحديث.ص59.

2- الجاحظ.البيان والتبيين.ج4/ص36.

3- المصدر نفسه.نفس الصفحة.

وإذا جاء المقدار الذي يُعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها، كان ذلك شعرا."[1]

نلمح في هذا النص حساسية أذن [الجاحظ] حيث لحظ أنّ في هذا التّعبير قيمة عروضية لكنّها ليست شعرا لأن الشعر لا بد من أن يكون مقصودا والهدف كذلك مقصودا وصوابا حتى تتحقق الرّسالة الجمالية.

والشاعر حين يستخدم الكلمات يقصد بها تمثيل تصور ذهني معين له دلالته وقيمته الشعورية بفن الشّعر المقصود.

2-المثل:

المثل في اللغة الشّبه[2]، يقال: مِثل ومَثَل، وشِبه وشَبَه بمعنى واحد. والشّبيه والنظيير[3]. وقيل إنما سمي مثلا، لأنه ماثل لخاطر الإنسان أبدا يتأسى به، ويعظ، ويأمر ويزجر. وفي اصطلاح أهل البيان هو " كل كلام وجيز منثور أو منظوم قيل في واقعة مخصوصة تضمّن معنا وحكمة، وقد تهيأ بتضمنه ذلك لأن يستشهد به في ناظر تلك الواقعة."[4]

1- الجاحظ.البيان والتبيين: ج1/ص289.

2- الجاحظ.لسان العرب: مادة "مثل"

3- ابن رشيق.العمدة:ج1/ص478.

4- عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد: الفلك الدائر على المثل السائر.ص53.القاهرة.

وهو من حيث المضمون ثلاثة أنواع:

1- نوع فيه إشارة إلى حادثة معينة. مثل: سبق السيف العذل وقد جاء شعرا في قول جرير:

تُكلفنـــي ردَّ الفوائت بعدمـــا سَبَقْن كسَبق السَّيف ما قال عاذِله[1]

2- ونوع فيه إشارة إلى نموذج من النماذج. مثل: قول القائل: "عن حتفها بحثت ضأنٌ بأضلافها "[2]

وقد قد جاء شعرًا في قول الفرزدق:

وكَانَ يُجير النَّاس من سَيف مالكٍ فَأصْبَحَ يبغي نفسه من يُجيرهَـا

وكان كعتر السَّوء قامت بِظِلْفِهَا إلَى مُدية تَحْـتَ التُّراب تُثِيرُهَـا[3]

3- ونوع هو بالحكمة أشبه. مثل: " لا تكن حلوًا فتُزدَرَد ولا مُرًّا فتُلفظ "[4]

وقول الجاحظ وفي المثل المضروب: " كلُّ مُجرٍ في الخلاء مُسَرٌّ "[5]

قال الشاعر:"

إنَّ الـحديث تغرُّ القومَ خَلوَتُـــه حتـى يلـجّ بـهم عـــيّ وإكثـارُ

وقد يكون مجرد تعبير عن حال ما، وهو الذي يكثر في التمثل، كقول الشاعر:

فَمَا كَانَ قَيْس هُلكُهُ هُلك واحد ولـكنَّـهُ بنيـانُ قَـوْمٍ تَـهَدَّمَـا."[6]

1- الجاحظ.البيان والتبيين:ج1/ص389.

2- الجاحظ.الحيوان:ج5/ص487.

3- الجاحظ.البيان والتبيين:ج3/ص259.

4- المصدر نفسه:ج3/ص255.

5- المصدر نفسه:ج1/ص203.

6- المصدر نفسه:ج3/ص188.

الفصل الثاني:

" النقد العربي القديم والوظيفة الأخلاقية للشعر "

أولا: في صدر الإسلام.

ثانيا: في عصر بني أمية.

ثالثا: في العصر العباسي.

أوّلا: في صدر الإسلام

1- موقف الإسلام من الشّعر:

كان العرب أمّة شاعرة على حدّ قول الدكتور ختير عبد ربي[1]، و قيل عنها "بأنّها لا تدع الشّعر حتى تدع الإبل الحنين."فيكون الشّعر بناء على ذلك عنوانا لحضارتهم وثقافتهم وعلمهم الذي لم يكن لهم علم أصح منه فساروا على ما فطموا عليه إلى أن ظهرت الدّعوة الإسلامية فأضاء الإسلام بذوره للوجود البشري، وجاء بقيمه الرفيعة، فأقام حياة لا مكان فيها لنقائض الجاهليّة، فلا خمر ولا مجون، ولا حرب لأتفه الأسباب، كما لم يسمح بالتعصّب القبلي ولا المدح أو الهجاء أو الفخر أو الرثاء إلا في إطار ما تسمح به الحياة الإسلامية وفي نطاق الفضائل التي أخذ الدّين و رسوله وأصحابه المسلمين بها.[2]

لقد فتح الدّين الجديد أمام الشعراء مجالات الإبداع و الإتيان بشيء رائع في فنّه و لفظه فهو لم يُعادِ الشعر، ولم يكن سبب في إضعافه وعدم إقبال الشعراء على فنّه[3]، وإنما الشيء الجديد الذي سعى إليه الدين الحنيف هو تهذيب الشّعر، فبعدما كان هذا الأخير يوزن بميزان الجودة الفنية، صار الآن بمجيء الرّسالة المحمّدية يوزن بميزان القيم الدينية والأخلاق الفاضلة.

1- ينظر ختير عبد ربي. النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي. دار الغرب للنشروالتوزيع. دط. الجزائر.2004. ص29.

2- ينظر: عبد الرؤوف أبو السعد.مفهوم الشعر في ضوء نظريات النقد العربي.ص84.

3- المرجع نفسه.ص87.

فلمّا مضت الأيّام، اتّضحت معالم الصراع بين المسلمين والمشركين فخاض المسلمون المعارك ضدّ المشركين و استبسلوا في الدفاع عن الشريعة إلا سلامية و استخدم أعداء الله و الإسلام كل أساليب المقاومة للقضاء على هذه الدعوة، فكان الشعر من أخطر الأساليب، وذلك لعظم مكانته وأثره القوي و الفعال في نفوس العرب و كان رد المسلمين بنفس الوسيلة فوقع اختيار الرسول - صلى الله عليه و سلم - على فريق من الشعراء أمثال: حسّان بن ثابت، كعب بن مالك، عبد الله بن رواحه، للرّدّ على الشعراء المشركين أمثال: ابن الزّبعري، و أبي سفيان.[1]

فنزلت الآية الكريمة مبينة موقف القران الكريم من الشعر، قال جل جلاله: { وَالشُّعَرَاءُ يَتْبَعُهُمْ الغَاوُونْ (224) أَلَمْ تَرَ أَنّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَاَ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الّذِينَ ظُلِمُوا أَيّ مُنْقلِبٍ يَنْقلِبُونْ (227) }[2].

و قد ذهب ابن رشيق إلى أن: " المقصود من هذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله - صلى الله عليه و سلم - بالهجاء ومسّوه بالأذى، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل و نبّه عليهم فقال : " إِلَا الّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ

1- ينظر: ختير عبد ربي، النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي.ص39.

2- سورة الشعراء. الآيات: 224، 225، 226، 227.

مَا ظُلِمُوا ..." يريد شعراء النبي صلى الله عليه و سلم الذين كانوا ينتصرون له و يجيبون المشركين عنه : " كحسان بن ثابت، و كعب بن مالك، و عبد الله بن رواحة "[1] فيكون الشعراء سلاحا ذا وجهين: أحدهما في سبيل الحق و نصرة الإسلام و الوقوف بجانب القيم و تصوير جوانبها الفاضلة، و هذا مقبول و مرغوب فيه و جماله يكمن في هذا الالتزام و الجانب الثاني ما يتضمنه الشّعر من مبالغات في الهجاء و تصوير جانب بتجميل القبيح و تقبيح الجميل و هذا هو المنهي عنه و المرفوض من جانب الإسلام و رسوله.[2]

أما ما يخص الأحاديث النبوية التي تناولت الشّعر مبنية جانبه السّلبي فإننا نذكر منها قوله - صلى الله عليه و سلم - : " لأن يَمْتَلِئَ جَوْفَ أَحَدِكُمْ قيحاً حتى يريه، خَيرٌ لَهُ مِن أن يَمْتَلِئَ شِعْرًا"[3] ، و يذهب ابن رشيق إلى أن المعنى بهذا الحديث هو "من غلب الشعر على قلبه و ملك نفسه حتى شغله عن دينه و إقامة فروضه و منعه عن ذكر الله تعالى، و تلاوة القران و الشّعر و غيره مما جرى هذا المجرى من شطرنج و غيره سواء، و أما غير ذلك ممّن يتخذ الشّعر أدبا و فكاهة، و إقامة مروءة فلا جناح عليه، و قد قال الشّعر كثير من الخلفاء الراشدين بعد الرسول - صلى الله عليه و سلم - و من تبعه من الصحابة و التابعين و الفقهاء المشهورين."[4]

1- ابن رشيق. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.ص32،33.

2- ينظر: عبد الرؤوف أبو السعد.مفهوم الشعر في ضوء نظريات النقد العربي.ص87.

3- ابن رشيق.العمدة.ج1.ص33.

4- المصدر نفسه.ص33.34.

إنّ الإسلام لم يعارض الشعر كله و إنما رفض ما لم يقف عند حدود ما أَمْلَت به الرّسالة السّامية، وهذا ما يؤكده - صلى الله عليه و سلم - "ذلك" بقوله: "إنّ مِن البَيَان لَسِحرًا، وإنّ من الشّعر لَحِكمًا و قِيلَ لَحِكْمَة ."[1]

فقرن البيان بالسحر فصاحة منه صلى الله عليه و سلم، وجعل من الشعر حكما، كما قد جعل منه أخطر سلاح لنصرة الدعوة الإسلامية، حيث قال لحسان بن ثابت: "اهْجهم و رُوح القُدْسِ مَعك و الله لَشِعرك أشدّ عَلَيْهم من وَقْع النّبل "[2]

كما تجلت مكانة الشّعر عند النبي عليه الصلاة و سلام في عدة مواقف منها عفوه عن كعب بن زهير، الذي توعد بقتله، ذلك حين أنشده قصيدته الشهيرة "بانت سعاد" التي مطلعها: "

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم عندها لم يجز مكبـــول

وليقول بعد تغزله وذكر شدّة خوفه و وجله:

أنبئت أن رسول الله أوعدنـي   والعفو عند رسول الله مأمول

فلم ينكر النبي عليه الصلاة و السلام قوله، وما كان ليوعده على باطل بل تجاوز عنه ووهب له بردته."[3]

ومن شواهد التاريخ كذلك التي تشهد على تأثّر الرّسول عليه الصلاة والسلام بالشعر،قضية مقتل النّضر بن الحارث الذي عدّ من أكبر أعداء الرسول حقدا عليه إذ وبعـد

1- المصدر السابق. ص26.

2- بشير خلدون.الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي.الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.دط.1981.ص37.

3- ابن رشيق. العمدة.ج1.ص21،22.

أن أمر عليه الصلاة و السلام بقتله، استمع - صلى الله عليه وسلم - لأبيات قالتها بنت النّضر قائلة له بأن النضر قتل بسيوف أرحامه التي مزّقته، ولم تراع حرمته وصلته، ثمّ عاتبته عليه الصلاة والسلام قائلة:

وما كان ضرّك لو منت وربّمـــا   من الفتى وهو المغيظ المحنق

فالنّضر أقرب من أصبت وسيلة   وأحقّهـــم إن كـــان عنق يعتق

ليقول عليه الصلاة و السلام بعد إن استمع إليها وعيناه تدمعان: "لو سمعت شعرها هذا قبل قتله لمننت عليه"[1]

ومن موقف الرسول - عليه الصلاة و سلام - من الشّعر ننتقل الصّحابة رضوان الله عليهم، والذين كانت لهم أيضا مواقف تجاه الشّعر، و من بينهم نجد عمر بن الخطـــاب - رضي الله عنه - الذي وصلت به شدّة ولوعه بالشّعر إلى حد القول: " كان الشّعر علم قوم لم يكن لهم علم اصحّ منه."[2]

كما نلمس تأثّره بالشّعر في قصته توعّده بقطع لسان الحطيئة، لأنّه أقذع في هجاء الزبرقان بن بدر، إلا انه - رضي الله عنه - لم يفعل ذلك و اكتفى بسجنه، ثمّ أطلق سراحه فيما بعد، وذلك بعد أن سمع منه أبياته التي خاطبه فيها واستعطفه قائلا:

ماذا تقول الأفراخ بذي مرخ   زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

1- ختير عبد ربي، النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي.ص39.

2- ابن رشيق. العمدة. ج1/ص28.

ألقيت كاسيهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر[1]

2- الشّعر كرسالة سامية:

انصبّت رؤية الرسول - عليه الصلاة و السلام - و صحابته على غاية الشّعر في هذه الحياة والغاية بدون أدنى شك تجلت في مدى احتواء الشعر للمبادئ الدينية والأخلاق الفاضلة، فكان النبي - صلى الله عليه و سلم - أوّل من قال بهذه الغاية:

"الشّعر كلام مؤلف، فما وافق الحقّ منه فهو حسن وما لم يوافق الحقّ منه فلا خير فيه."[2]

فتضمن كلامه هذا في طيّاته جانبين: الجانب الفنّي الذي ليس مجال حديثنا الآن، والجانب الأخلاقي والذي تمثّل في أنّ الشّعر يجب أن يكون مضمونه موافقا لما يمليه الدّين الحنيف، وإن لم يكن كذلك فهو ليس بشعر جيّد ولا خير فيه.

ومن مواقفه أيضا - عليه الصلاة و السلام - ما روى عنه، حين قدم عليه النّابغة الجعدي فأنشده أبياتا، أعجب بها - صلى الله عليه و سلم - بل أنه دعا له بالخير لأنه رأى فيها معاني متماشية والقيم الإسلامية الفاضلة.

إذ "قال النابغة:

بَلَغْنَا السّماء مجدنَا وسناؤنَا وإنّا لَنَرجُو فوقَ ذلك مظهرًا

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: إلى أين يا أبا ليلى؟

فقال: إلى الجنّة إن شاء الله، فلمّا انتهى إلى قوله:

1- بهجت عبد الغفور الحديثي. دراسة نقدية في الشعر العربي. ص228

2- ابن رشيق. العمدة. ج1/ص27.

ولا خيـر فـي حلـم إذا لم تكن بـوادر تحمي صفوه أن تكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : ليفضفض الله فاك ،فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنغص له ثنية"[1]

وقد اتّبع الصحابة كذلك ما جاء في القرآن الكريم والسّنة و في نظرتهم إلى الشعر كرسالة هادفة سليمة، فهذا أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، الذي اعتمد على الصّدق العقائدي ومدى نجاح الشّعر في التعبير عن فكرة الإسلام ومعتقده[2]، يقف عند قول لبيد الذي احتلّ مكانة راقية عنده إلا أنّه لم يتوان عن توجيه النقد إليه حين قال: " ألا كل شيء ما خلا الله باطل، فقال له رضوان الله عليه: صدقت، ثم أتبع قوله: وكلّ نعيم لا محالة زائل، فقال له: كذبت، عند الله نعيم لا يزول."[3]

ومن موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه ننتقل إلى موقف عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - الذي عرّف الشّعر انطلاقا من دوره الفعّال في تهذيب الأخلاق، وإطفاء ثائرة الغضب، قائلا: " جزل من كلام العرب ليسكن به الغيظ وتطفأ به الثّائرة ويبتلغ به القوم في ناديهم، ويعطي به السّائل."[4]

---

[1]- ابن عبد ربه.العقد الفريد.ج5.منشورات دار الكتاب العربي.دط.بيروت1992.ص269.

[2]- ختير عبد ربي.النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي.ص63.

[3]-المرجع نفسه.الصفحة نفسها.

[4]- ابن عبد ربه.العقد الفريد.ج5.ص281.

ومن شدّة حرصه على أداء الشعر لرسالته الأخلاقية والتربوية نراه يحث على تعلمه لما يحمله في طيّاته من قيم وأخلاق نبيلة، وذلك حين كتب لأبي موسى الأشعري قائلا له:

"مُر من قبلك بتعلم الشّعر، فإنه يدل على معاني الأخلاق، وصواب الرأي ومعرفة الأسباب."[1]

كما روي عنه - رضي الله عنه - قوله: "أرْوُوا من الشعر أعفّه، ومن الحديث أحسنه ومن النسب ما تواصلون عليه وتعرفون به، فربّ رحم مجهولة قد عرفت فوصلت ومحاسن الشّعر تدلّ على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساوئها."[2]

وهنا يبيّن عمر - رضي الله عنه - نوعيّة الشّعر الذي يجب تعلمه، وهو أن يكون عفيفا حسنا، منسجما مع قيم الإسلام ومثله النبيلة العالية، وقد تجلت وظيفة الشعر التعليمية عند عمر حين كتب إلى ساكني الأنصار من المسلمين، قائلا لهم: " أما بعد: فعلّموا أولادكم السباحة والفروسيّة وارووهم ما سار من المثل وحسن من الشّعر."[3] فسعى رضي الله عنه من خلال كلامه هذا إلى بناء المسلمين روحا وجسدا.

ومن جملة المواقف التي نذكرها لعمر من الشّعر، حكمه على شعر زهير الذي عدّه : "أشعر الشّعراء ، لأنّه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشيه ، و كان لا يمدح

1- ختير عبد ربي.النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي.ص76.

2- المرجع نفسه ص74.

3- المرجع نفسه ص73.

أحد إلا بما فيه."[1] يظهر الجانب الأخلاقي في كلامه هذا، في ابتعاد الشّاعر عن مدح أحد ما إلّا بما فيه من صفات، فهو لا يقول إلّا ما كان حقا وحقيقة، فبهذا الحقّ بنيت الرسالة السماوية وهو ما جعل عمر- رضي الله عنه - يقف عند بيت أنشده زهير بن أبي سلمى قائلا فيه:

فَإِنّ الحَقّ مَقْطَعُهُ ثَلاث   يَمِين أو نِفَار أَوْ جَلاء[2]

يحكم لزهير بأنه قاضي الشّعراء.

نخلص في النّهاية إلى أنّ الشّعر في صدر الإسلام لم يبقى على ما كان عليه من قبل بل إنه تجمل بالالتزام الأخلاقي وتحصّن بمبادئ الإسلام، لكن في ظل توجيه نقدي متذوق للتراث، مؤمن بالدّين الجديد.

---

[1]-بشير خلدون.الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي.ص37.

[2]-ينظر: ختير عبد ربي.النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي.ص79.

ثانيا: في عصر بني أمية:

عرف الإبداع العربي في عصر بني أمية تطورا ملحوظا، وتوفرت الظروف الملائمة لرقي الحياة الثقافية بصفة عامة، والحياة الأدبية بصفة خاصة، كما أن الفتوحات المستمرة التي تمت في عهدهم أدّت إلى خلق بيئات أدبية جديدة أهمها: بيئة الحجاز، بيئة الشام و بيئة العراق، ثم إن تشجيع خلفاء بني أميّة للأدب و الأدباء، قد ساعد على شدّة التّنافس بين الشّعراء والأدباء، مما خلق أدبا ثريا و نقدا غزيرا، إذ نما هذا الأخير - النقد الأدبي - نموّا ملحوظا على حد قول الدكتور ختير عبد ربي[1] وتعددت البيئات المهتمّة به من شعراء نقّاد ولغويّين وفقهاء، ممّا خلق محيطا ثقافيّا وأدبيّا تنامت فيه الآراء النقديّة.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل خضع الإنتاج الأدبيّ الضخم في هذه الفترة الزمنية للنقد الأخلاقي؟

لقد ظلت النظرة الأخلاقيّة للشعر مستمرة حتى في العصر الأموي، ولكن بدرجة اقلّ، إذ لم يعد لها الوزن الذي كان لها في صدر الإسلام، إذ تحوّلت الحياة الإسلامية بعد مقتل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إلى صراعات دموية رهيبة تمكّنت من غرس بذور الشقاق والتمزّق بين أهل الإسلام وبدأ نظام أموي إسلامي الشّكل، جاهليّ المنزع والمضمون

1- ينظر: المرجع السابق. ص125.

مما أدّى إلى ظهور تيارات متضاربة ومتطرّفة، فانعكس على الأدب بعامة، والشّعر بوجه الخصوص.

وتحدد دوره وموقفه من تلك الأزمات التي ألمت بالحياة الإسلامية وتأثرت بالصّراعات السّياسية التي فرقت الواقع الموحد للوجود الإسلامي، والتي تمكنت في الوقت نفسه من استقطاب أعداد هائلة من المسلمين على المستويات الفكريّة، اللغويظّة والأدبيّة، فقويت فكرة الالتزام في الشعر ولكنه تجاوز الالتزام الأخلاقي الذي كان عليه في عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه، إلى الالتزام السّياسي والدّفاع عن تلك القوى الطامحة في الحكم و القيادة، حتى أصبح لكل فريق أدبه الملتزم و شعره المبرّر لاتجاهه وفنّه الإعلامي.[1]

فهم لم يلتفتوا إلى المضامين ما إذا كانت أخلاقية أم لا، وإنما اتّجهوا إلى تذوق النّصوص الشّعرية فنيّا لا أخلاقيّا، جاعلين منه مقوما من مقوّمات الترويج لسياستهم وحقّهم في الخلافة[2]، وهذا ما أكّده موقف الخلفاء من بعض الشعراء كالأخطل على سبيل المثال، فعلى الرغم من نصرانيته ومخالفة سلوكه للسّلوك الإسلامي فإنّه حظي بمنزلة متميزة عندهم، لأنّه سخّر شعره لخدمة السّياسة التي أقاموا عليها دولتهم فغدا

1- ينظر:عبد الرءوف ابو اسعد , مفهوم الشعر في ضوء نظريات النقد الأدبي,ص 101.

2- ينظر:عبد القار ,دراسات في النقد الأدبي عند العرب ديوان المطبوعات الجامعية دار الجزائر 1995, ص229.

شاعر الحزب الأموي[1]، ورغم كل هذا فإن النّقد الأخلاقي، لم يتوقف عند الربط بين ديانة الشّاعر وشعره، بل نظروا إلى محتوى الشّعر نفسه ومدى انسجامه مع الأخلاق الفاضلة بمعزل عن صاحبه، ومن هذا يمكن القول بأن النّظرة الأخلاقية كانت لها مكانة في تقويم الشعر في هذه الفترة الزمنية كما سنلاحظ ذلك.

1- الشعر كرسالة سامية:

عرفت المظاهر العربية في العصر الأموي تحوّلا جذريّا وكذلك الأمر بالنّسبة إلى الشعر فقد ازدادت أبوابه اتّساعا وأغراضه تنوّعا، جادت معانيه وتهذّبت ألفاظه وذلك بعامل المنافسات الكثيرة وبتأثير القرآن الكريم.

إذ عد الأمويّون الأدب شيئا لازما يربّون عليه أبنائهم، ويحضّون الناس على تعلّمه[2]، وقد جاء ذلك على لسان أكثر من خليفة كمعاوية بن أبي سفيان الذي قال: "يجب على الرجل تأديب ولده، والشّعر أعلى مراتب الأدب ."[3]

فحسب رأي معاوية، أن تربية الأبناء ورعايتهم واجبة علينا، وأفضل وسيلة يستعان بها في تربيتهم هو الشّعر، وفي هذا دليل على الدور الفعّال للشّعر في تربية النّاشئة تربية صالحة.

كما اتضح أيضا حرص معاوية بن أبي سفيان الشّديد على دور الشّعر في تربية الأجيال على المبادئ الإسلامية،في ما روي عنه أنّه بعث إليه زياد بولده "فكاشفه عن فنون

1- المرجع السابق. ص216.

2- بشير خلدون.الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي.ص37،38.

3- ابن رشيق. العمدة. ج1/ص29.

العلم، فوجدوه عالما بكل ما سأله عنه، ثم استنشده الشّعر فقال: "لم أرو منه شيئا" فكتب إلى زياد: "ما منعك أن ترويه الشعر؟" فو لله إنّ العاق ليرويه فيبرّ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل."[1]، فالشّعر عند معاوية هو فنّ من الفنون يقوم بوظيفة أخلاقية تربوية مضمونها الخصال الأخلاقية الحميدة: البرّ بالوالدين، السّخاء والشجاعة كلها قيم فاضلة ينبغي على الفرد أن يتحلي بها.

وتجلّت كذلك نظرة أخلاقية في وصيّة له، توجّه بها إلى عبد الرحمن بن الحكم جاء فيها: "يا ابن أخي إنك شهرت بالشّعر وإياك والتشبيب بالنساء فإنك تغر الشريفة في قومها، والعفيفة في نفسها؛ والهجاء، فإنك لا تعدو أن تعادي كريما أو تستثير به لئيما، ولكن افتخر بمآثر قومك، وقل من الأمثال ما توقر به نفسك، وما تؤدّب به غيرك."[2]، فهنا حث معاوية الشاعر عبد الرحمن بن الحكم على تجنب قول الشعر في غرضيّ الغزل، والهجاء، لما يحملانه من آثار سلبية على الفرد والمجتمع، ثم نصحه بالقول فيما فيه من فخر بمآثر القوم، والحديث بالأمثال التي تكسبه احتراما وتقديرا، وتعطي الآخر النّصح والإرشاد.

كما نهى أيضا عن القول في المديح: "إياك والمدح فإنّه كسب للخسيس."[3]

وليست مواقف معاوية من الشّعر إلا دليلا على أثر هذا الأخير في النّفوس، وهو ما عبر عنه قائلا: "اجعلوا الشعر أكبر همّكم، وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفّين،

1- ابن عبد ربه. العقد الفريد. ص274.

2- المصدر نفسه. ص281.

3- وليد قصاب. النقد العربي القديم.دار الفكر.دط.دمشق.2005.ص84

وقد أتيت بفرس أغرّ محجل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو ابن الإطنابة:"

أَبَتْ لِي هَمَّتِي وَأَبَى بَلَائِي وَأخذِي الحَمد بِالثّمَن الرّبِيح."[1]

فبيّن لنا معاوية بكلامه هذا كيف سوّلته نفسه بالهرب، إلا أنّ أبيات عمرو منعته من ذلك وجعلته يواصل القتال.

2- تقويم الشعر أخلاقيا:

سعى خلفاء بني أميّة إلى تقويم الشّعر أخلاقيا، كالخليفة عبد الملك الذي قدم جملة من الأحكام والانتقادات، فكان منها انتقاده لعمر بن أبي ربيعة المعروف بغزله الماجن إذ روي أن عبد الملك لمّا حجّ لقيه عمر بن أبي ربيعة هناك، فقال له: " لا حيّاك الله يا فاسق، قال:" بئست تحية ابن العمّ لابن عمه على طول الشحط"

فقال له: يا فاسق ذلك لأنك أطول قريش صبوة، وأبطأها توبة، ألست القائل:

ولو لا أنّ تعنفني قريش مقام النّاصح الأدنى الشّفيق

لقلت إذا التقينا : قبليني و لو كنّا على ظهر الطّريق

أغرب."[3] فلم يكن حكم عبد الملك على عمر بن أبي ربيعة حكما عفويّا وإنّما حكم عليه بناء لما تحمله أبياته من معان فاضحة مخلّة بالحياء، فسعى بحكمه هذا إلى درع الشّعراء من أمثال عمر وذلك حفاظا على المجتمع من الانحلال الخلقي.

1- ابن رشيق.العمدة.ج1.ص29.

2- أبو عبد الله بن موسى المرزباني.الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء.ص293.

وفي هذا السّياق أيضا نجده يقدم انتقادا لشاعر آخر ، هو عبد الله بن قيس الرقيات، وذلك حين لاحظ عليه عدم حسن استعماله لِلَفظة (قد)، ممّا أدى إلى إساءة فهم التعاليم الإسلامية، قائلا له: "ويحك يا ابن قيس: أما اتّقيت الله حين تقول لابن جعفر:

تزور امرأ قد يعلم الله أنه تجود له كفّ قليل غرارها

ألا قلت: "قد يعلم الناس ولم تقل، قد يعلم الله."

فقال ابن قيس: "قد والله عَلِمه الله، وعَلِمته أنت، وعلمته أنا، وعلمه الناس."[1]

وما هذا الحكم إلا دليلا على شدّة حرص عبد الملك على الدّفاع عن الإسلام وتعاليمه.

وقد اندرج حكم كلا من الخليفتين: عبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز ضمن أحد الاتّجاهين النّقديين الذين عرفا في البيئة الأموية، ألا وهو الاتّجاه الموضوعي وبالتحديد بما يسمى (بنقد المعنى) الذي عرّفه ختير عبد ربي على "أنّه النّقد الموضوعي النّاظر في المعنى"[2].

يتجاوز تأثير الشّعر في النّاس والشّعراء والخلفاء إلى رجال اللغة، أمثال أبي عمرو بن العلاء، هذا الناقد اللغوي الذي يعتبر أحد المنظرين القدماء الذين لجئوا إلى وضع ضوابط لفنون الشعر، وفضّلوا شعرا عن غيره بناء على توفر تلك الضوابط فيه.[3]

ليكون الشعر الذي يقبل به أبو عمر بن العلاء هو الذي لا يخلّ بالحياء.

1- وليد قصاب. النقد العربي القديم. ص95.

2- ختير عبد ربي.النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي.ص79.

3- المرجع نفسه. ص132.

فيقول: "خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها، فلا يقبح بمثلها."[1] فهو لم يقصد بكلامه هذا ذاك الهجاء المقذع اللّاذع، وإن كان مجرحا، إلا أنّه قد يكون غير مخلّ بالحياء، ولكنه قصد بالهجاء ذاك الفاحش الذي ليس بمقدور الفرد إنشاده للغير، لما فيه من فحش وقلة حياء، وهكذا فالهجاء الذي قبل به أبو عمرو بن العلاء هو الذي لا يخلّ بالحياء.

وأمّا من فئة النّقاد، فإننا نجد ابن أبي عتيق الذي يعدّ من أشهر نقاد عصر بني أمية، وكان من النساك والرواة الموثوق بهم، في نفس الوقت الذي كان فيه متذوقا للشعر وحافظا له، إلى درجة أنّه قال عن نفسه: "أنا بالحسن عالم نظّار."[2]

ومن صور النّقد الأخلاقي التي نقلت عنه، موقفه من أبيات قالها بن أبي ربيعة ذكر فيها زينب بنت موسى، وتشبّب بها، فبلغ ذاك ابن أبي عتيق، فلامه فيه وقال له: "أتنطق الشعر في ابنة عمي؟" فقال عمر:

لاَ تَلمْنِي عَتِيق حَسبِي الّذِي بِي إنّ بِي يَا عَتِيق مَا قَد كَفَانِي.

لا تَلُمْنِي وَأنْتَ زيّنتَهَا لِي.

فبدره ابن أبي عتيق فقال: "أنت مثل الشيطان للإنسان." فقال ابن أبي ربيعة: "هكذا ورب البيت قلته." فقال ابن أبي عتيق: "إنّ شيطانك وربّ القبر ربما ألمّ بي فيجد عندي من عصيانه خلاف ما يجد عندك من طاعته فيصيب منّي وأصيب منه."[3]

1- ابن رشيق. العمدة. ج2/ص170.

2- ختير عبد ربي.النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي.ص121.

3- المصدر نفسه الصفحة نفسها.

ويظهر من قوله هذا أنّ ابن أبي عتيق غير راض عمّا قد ذهب إليه عمر بن أبي ربيعة في شعره الماجن، وهذا دليل عن رفضه لكل ما فيه إساءة للأخلاق.

وفي نفس السّياق، نجد ما روي عن أبي عتيق وعمر بن ربيعة أيضا، أنّهما كانا جالسين بفناء الكعبة، وإذا بامرأة مرت بهما وهي من آل أبي سفيان، فدعا عمر بن ربيعة بكتف فكتب إليها وكنى عن اسمها:

ألما بذات الخال فاستطلعا لنا على العهد باق، ودها أو تصرما

وقـولا لها: أن النوى اجنبيه بنـا وبكم قد خفـت أن تتيممـا

فقال له ابن عتيق: "سبحان الله ! ماذا تريد من امرأة مسلمة محرمة أن تكتب إليها مثل هذا؟"[2] وهذا الموقف دليل على عدم تقبّل ابن أبي عتيق لفحش وعبثية شعر صديقه، ونفس الحكم أيضا أطلقه عليه حين قال:"

أيّها الرّاكب المجد ابتكـارا قد قضى من تهامـة الأوطارَا.

من يكن قلبه صحيحا سليمـا ففؤادي بالخيف أمسى معـارَا.

ليت ذا الدّهر كان حتما علينا كلّ يومين حجة واعتمـارَا.

فقال له ابن أبي عتيف: الله أرحم بعباده، أن يجعل عليهم ما سألته ليتمّ الله فسقك."[3]

1- أبو الفرج الأصفهاني. الأغاني. ج1/ص101،102.

2- المصدر نفسه. ج9/ص231.

3- ختير عبد ربي.النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي.ص121.

وخلاصة القول، عن الشّعر و وظيفته الأخلاقية في عصر بني أميّة، نجد أنّ مكانة المعيار الأخلاقي قد تراجعت عمّا كانت عليه في العصر الإسلامي، ولكنّه لم يتراجع تراجعا كليّا.

ثالثا: في العصر العباسي:

إذا كان المعيار الأخلاقي في نقد الشّعر حظي بالاهتمام من طرف نقّاد عصري صدر الإسلام وبني أميّة، فإن له أيضا مكانة لدى نقّاد العصر العباسي، عصر التألّق والإبداع، عصر التفتّح والازدهار والتطور، وهذا ما تجلى من خلال كثرة الآراء النقديّة التي اهتمت بالمضامين الشّعرية التي اتّجهت إلى ما ينبغي أن يكون موضوعا للشّعر، وهذه بعض صور النقد الأخلاقي عند بعض نقّاد هذه الفترة الزّمنية.

1- ابن قتيبة: 213 هـ - 276 هـ

يعتبر ابن قتيبة من أوائل النّقاد الذين يدعوا إلى ضرورة تقويم مضمون الشّعر أخلاقيّا فتجلّى ذلك حين قسم الشّعر إلى أربعة أضرب، لينقي ضربا واحدا منها، وذلك لتوافقه والمعيار الأخلاقي، إذ قال: " تدبّرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب منه حسن لفظه، وجاد معناه، كقول القائل في بعض بني أمية:

فـي كفة خيزران ريحه عبـق من كف أردع في عرينه شمم

يفضى حياء و يفضي من مهابته فمـا يكلـم إلّا حـين يبتسـم

لم يقل في الهيبة شيء أحسن منه، وكقول أوس بن حجر:

أيّتهـا النفس أجملي جزعـا إن الذي تحذرين قد وقعا

لم يبتدئ أحد مرثيته بأحسن من هذا وكقول أبي ذؤيب:

والنّفس راغبة إذا رغبتهـا وإذا ترد إلى قليل تقنـع"[1]

1- ابن قتيبة. الشعر والشعراء. طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة أبريل.ص07.

فمضامين الأبيات التي استشهد بها ابن قتيبة كلّها ذات طابع أخلاقي (الحياء والهيبة) في الاستشهاد الأول و(الصّبر) في الاستشهاد الثاني، و (الحكمة) في الاستشهاد الثالث كلها صفات تدخل ضمن حيّز الأخلاق، وهذا ما حمله على رفض الأضرب المتبقية. فقد رفض الضرب الثاني و هو:" ما حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، كقول القائل:

وَلَمّا قَضَيْنَا مِن مُنَى كُلّ حَاجَـــــة وَمَسَحَ بِالأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِـح

وشَدّت عَلَى حَدْبِ المَهَارِي رِحَالنَا وَلَا يَنْظُر الغَادِي الّذِي هُوَ رَائِح

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيـثِ بَيْنَنَـــا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطي الأَبَاطِح."[1]

ليتبعها بتعليق قائلا:" هذه الألفاظ كما ترى أحسن مخارج، مطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولمّا قطعنا أيّام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح وهذا الصنف في الشعر كثير."[2]

فعدم اعترافه بجودة هذه الأبيات عائد إلى أن معانيها ليست كما أرادها هو، فهي ليست دالّة على أخلاق فاضلة، ولا على حكمة واعظة مثلما كان الحال في الضرب الأوّل من الشّعر.

ولم يناد ابن قتيبة بالوظيفة الأخلاقية للشّعر في كتابه (الشعر والشعراء) فحسب وإنّمـــا

1- المصدر السابق. ص8.

2- المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

نادى بها في جميع الكتب التي ألّفها لاحقا، إذ قال في كتابه (عيون الأخبار):

"إن الشّعر معدن علم العرب، وسفر حكمتها، ومستودع أيّامها والسّور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها والشّاهد العدل يوم النّفار، والحجّة القاطعة عند الخصام، ومن لم يقم عندهم على شرفه وما يدعيه لسلفه من المناقب الكريمة والفعال الحميد، بيت منه شذت مساعيه وإن كانت مشهورة، ودرست على مرور الأيام وإن كانت جساما، ومن قيدها بقوافي الشّعر وأوقفها بأوزانه وأشهرها بالبيت النّادر والمثل السائر والمعنى اللطيف، أخلدها على الدّهر، وأخلصها من الجحد ورفع عنها كيد العدو وغض عين الحسود..."[1] فهنا بين ابن قتيبة دور الشّعر ومكانته في حياة العرب فهو الحافظ للمآثر، وهو وسيلة لبناء مجتمع فاضل قائم على ما جاء به الدين الحنيف من الأخلاق ومبادئ إسلاميّة، كما اهتمّ ابن قتيبة بناظم الشّعر، فتوجّه إليه بنصائحه قائلا:" ونحن نستحب لمن قبل عنّا واهتم بكتبنا أن يؤدّب نفسه قبل أن يؤدّب لسانه ويهذّب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصيانته عن شين الكذب ويجانب شنيع الكلام ورفث المزح، كان رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ولنا فيه أسوة صالحة يمزح ولا يقول إلا حقّا... وأمّا السباب وشتم السلف، وذكر الأعراس بكثير الفواحش فممّـــا لا نرضاه للخساس العبيد،

1- وليد قصاب. النقد العربي القديم. ص165،166.

وصغير الولدان."[1] وهنا أكّـد على أن تكون معاني الشّعر صادرة عن شخصية الشّاعر الحقيقية، فلا يدعو إلى مبادئ وهو ليس أهل لذلك حتى لا يقول ما لا يفعل.

2- المبرّد: 286 هـ

أظهر المبرّد في كتابه (الكامل في اللغة والأدب)، رفضه القاطع لتلك المعاني التي تضمنتها أبيات لأبي نواس، لسبب واحد وهو أنّها لا تتماشى مع ما أمْلته العقيدة الإسلامية، فنفر من ذاك البيت الذي ذكر فيه الرسول - صلى الله عليه وسلّم - حيث وضعه في مكان ليس لائقا به، فقد قال أبو نواس:

كَيْفَ لَا يُدْنِيــكَ مِن أَمَل مِــنْ رَسُــولِ اللهِ مَنْ نَفَــرَه

فانتقده المبرد قائلا: " وهو لعمري كلام مستهجن ، موضوع في غير موضعه، لأن حق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يضاف ولا يضاف إلى غيره."[2] كما توقف المبرّد عند قول أبو نواس:

إلَى فَتَــى أم مالــه أبـ[ـدَا تَسْعَى بجيب في النّاسِ مشقوق

فقال المبرد: " وفي آخرها ما جمع بين كفر ولحد، وأكره حكايته لضعته وبطلانه."[3] ومن الأبيات التي أنكرها عليه أيضا قوله:"

يا أحمد المرتجي في كلّ نائبة قم سيّدي نعص جبّار السّموات

لأنّ هذه أعظم جرأة، وأقبح مجاهرة وأشدّ تبغضا إلى العزيز الجبّار عز وجل أن يقول: " نعص جبّار السّموات"فذكر المعصية مع ذكر الجبّار عن اسمه وإنّه إياه يقصد بالعصيان."[4]

1- المرجع السابق. ص190.

2- المبرد الكامل في اللغة والأدب. ج1.مكتبة المعارف.بيروت. دت. ص243.

3- المرزباني. الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء. ص308.

4- المصدر نفسه. ص309.

من الموقفين السابقيّ الذّكر يتبيّن لنا الجانب الذي منه نقد المبرّد أبيات أبي نواس، وهو من ناحية المضامين التي تجاوز فيها حدود العقيدة الإسلاميّة، فقد أكفر حين ذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم- في غير المقام الذي يليق به، كما وقع في الموقف الثاني في عصيان الله عز وجل.

3- ابن طباطبا العلوي: 322 هـ

ومن النّقاد الذين برزوا على الساحة النقديّة في هذه الفترة الزّمنية، ابن طباطبا العلوي وذلك من خلال كتابه (عيار الشعر)، هذا المؤلف الذي تميز بطابعه الخاصّ، إذ اقتصر على صناعة الشّعر وما يتصل به من قضايا اللفظ والمعنى وضروب التشبيهات، وغير ذلك من أنواع الصور البيانية.[1] وفي هذا الكتاب تظهر نظرته إلى وظيفة الشّعر الأخلاقية التي لا تنفصل عن متعته الجماليّة يقول:" إذا ورد عليك الشّعر اللطيف المعنى، الحلو اللفظ، التام البيان، المعتدل الوزن، مازح الرّوح ولاءم الفهم، وكان أنفذ من نفث السّحر، وأخف دبيبا من الرقيّ، وأشدّ إطرابا من الغناء، فسلّ السخائم، وحلّ العقد، وسخي الشّحيح وشجّع الجبان."[2]

ويتجلى لنا الجانب الأخلاقي من خلال كلامه هذا في هذه الكلمات: فسلّ السخاء، حلّ العقد، وسخي الشحيح وشجّع الجبان.

ومن الأغراض الشّعرية التي لقيت اهتماما لدى ابن طباطبا العلوي غرضا المدح والهجاء، إذ رأى ضرورة تغلب المعيار الأخلاقي على موضوعاتها فلا يمدح الرجل إلا

1- بشير خلدون. الحركة النقدية على أيام بن رشيق المسيلي. ص41.

2- ابن طباطبا العلوي. عيار الشعر. تح: عباس الساتر. دار الكتب العلمية. ط1. بيروت. 1982. ص22.

بما فيه، ولا يهجي إلا بما هو مأخوذ عنه فأمّا ما أثر عن العرب "تمدّحت به و مدحت به سواها وذمّت من كان على ضد حاله فيه، فخلال مشهورة كثيرة: منها في الخلق: الجمال و البسطة، ومنها في الخلق: السخاء و الشجاعة..."[1] فكل من السّخاء و الشّجاعة وغيرها تؤكد لن نزعته الأخلاقية، وهذا ما تعززه تلك الشواهد التي استعان بها في كتابة (عيار الشّعر)، والتي كانت منها ما تتسم بكونها رثّة الكسوة، و جودة المعنى على حد قوله: " ومن الحكم العجيبة والمعاني الصحيحة الرثّة الكسوة التي لم يتنوق في معرضها الذي أبرزت فيه قول القائل:

وَمَا المَرْءُ إلاّ كَالشّهَاب وَضَوْءه   يَحُور رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُو سَاطِــعُ

وَمَا المَالُ وَ الأهْلُون إلاّ وَدِيعَــة   وَلَا بُدّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِـــعُ."[2]

فعلى الرّغم من بساطة الكلمات، إلا أنّها أجود الأبيات في نظر بن طباطبا الذي نظر إلى مضمونها الأخلاقي الهادف.

وأمّا الأبيات التي أقرّ بجودتها شكلا و مضمونا فهي:" تلك الحكمة المستوفاة المعاني و السلسة الألفاظ والتي يجب روايتها و حفظها، كقول القطامي:

و العيش لا عيش إلا ما تقربــه   عينا و لا حالة إلا سوف تنتقـل

و النّاس من يلق خيرا قائلون له   ما يشتهي و لأم المخطئ الهبـل

قد يدرك المتأني بعض حاجاتـه   و قد يكون مع المستعجل الزلل."[3]

1- المصدر السابق. ص18.

2- المصدر السابق. ص91.

3- المصدر نفسه. ص59.

حيث ركز على ما تحمله الأبيات من الحقيقة و صدق في التعبير عمّا يختلج في النفوس فهي تنجح في التأثير على المتلقي" ولاسيما إذا أبدت بما يجدب القلوب من الصّدق عن ذات النفس، بكشف المعاني المختلفة فيها، و التصريح بما كان يكتم منها، و الاعتراف بالحق في جميعها."[1] فيكون الصدق الأساس الذي يقوم عليه التمييز بين التّعبير الشّعري الجيّد والرديء.

4- ابن حزم الأندلسي 356 هـ

وهذا أيضا ابن حزم الأندلسي يكوّن نظرته إلى الشّعر بناء على معتقده الديني و ثقافته الإسلامية التي تحدّث في ضوئها عن مفهوم الشّعر و عن أغراضه ووظيفته في الحياة و ميّز في كلامه بين الأغراض الشّعرية – بين نافع منها و ضار – فممّا هو نافع - حسب رأيه - شعر الحكمة و الخير لما فيه من توافق مع ما أمْلته العقيدة الإسلامية، يقول بهذا الخصوص "إن كان مع ذكرنا رواية شيء من الشّعر فلا يمكن إلا من الأشعار التي فيها الحكم و الخير كشعر حسّان بن ثابت و كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحه رضي الله عنهم، و كشعر صالح بن عبد القدوس و نحو ذلك، فإنّها نعم العون على تنبيه النّفس."[2]

و أما الأغراض التي رفضها و حذّر منها لما فيها من مفسدة بالأخلاق فإن: " أحدها : الغزل و الرقيق فإنها تحث على الصبابّة و تدعوا إلى الفتنة وتحض على الفتوّة

1- المصدر السابق. ص22.

2- إحسان عباس. رسائل ابن حزم الأندلسي. المجموعة الأولى. دار الهنا.دط. مصر. دت. ص65.

وتصرف النّفس إلى الخلاعة و اللذات، و تسهل الانهماك في الشطارة و العشق و تنهي عن الحقائق حتى ربّما أدى ذلك إلى الهلاك و الفساد في الدين و تبذير المال في الوجوه الذميمة وأخلاق العرض وإذهاب المروءة و تضييع الواجبات.

والضّرب الثاني: الأشعار المقولة في التصعلك و ذكر الحروب، كشعر عنترة و عروة ابن الورد ...، فإن هذه الأشعار تثير النفوس و تهيج الطبيعة و تسهل على المرء موارد التلف في غير حقّ...

والضّرب الثالث: أشعار التّغرب وصفات المفاوز و البيد و المهامة فإنها تسهّل التحول و التّغرب...

والضّرب الرابع: الهجاء، فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه، فإنه يهوّن على المرء الكون في حالة أهل السنة من كناسي الحشوش، و المعاناة لصنعة الضمير المتكسّين بالسفاهة و النّذالة و الخساسة وتمزيق الأعراض و ذكر العورات و انتهاك حرم الآباء و الأمهات..."[1] ففي كلامه هذا حدد لنا الأغراض التي رأى فيها أثار سلبية على أخلاق الفرد و المجتمع، إذ استهلّ حديثه بشعر الغزل مبينا أسباب الخطورة فيه لما ينجم عنه من آثار سلبيّة تكون خاتمتها الهلاك، ثم انتقل للحديث عن شعر الحروب و الصّعلكة الذي رأى فيه إثارة للنفوس و تهيجا و دفعا بها إلى سفك الدماء في غير حق ، كما و أنها قد تؤدّي إلى الظلم و الشر، و من شعر الصعلكة و الحروب إلى شعر التغريب و ذكر المفاوز ممّا لا فائدة ترجى منه ، وفي الأخير تحدّث عن شعر الهجاء وهو أفسد

1- المصدر السابق. ص66.

الضروب الشّعرية لما يؤدي إليه من تمزيق للأعراض، وذكر العورات و انتهاك للحرمات.

5-عبد الكريم النهشلي 405 هـ

وهذا عبد الكريم النهشلي يصب بدوره اهتمامه على ما في الأشعار من مضامين أخلاقية، فالشعر لم يكن عنده مجرد ألفاظ موزونة مقفاة أو أقوال تدلّ على معنى إنّما هو الفطنة والشّعور أي هو عاطفة و أحاسيس ووجدان، ممتثلا بقول العرب: "ليت شعري بمعنى ليت فطنتي"[1] فأسهب في إيراد فضائله و تعداد مزاياه مؤكدا على أنه "خير كلام العرب بعد القرآن الكريم وأشرفه، ترتاح له القلوب تجلّه النّفوس و تصغي إليه الأسماع و تشحذ به الأذهان وتحفظ به المآثر و تقيّد به الأخبار."[2]

وتلك هي الحقيقة فالشّعر يؤثّر في النّفوس لاعتماده على العاطفة و الوجدان ولما له من فصاحة و بيان.

فقد تجلّت النّظرة الدّينية السامية الداعية إلى الأخلاق الفاضلة في حديثه عن أصناف الشّعر، فيقول فيه: " الشّعر أربعة أصناف: فشعر هو خير كله، و ذلك ما كان في باب الزهد، المواعظ الحسنة، و المثل العائد على ما يمثل به الخير و ما أشبه ذلك، و شعر هو ظرف كله، وذلك القول في الأوصاف و النعوت و التشبيه ، وما يفتن من المعاني و الآداب، و شعر شرّ كلّه ، وذلك الهجاء و ما تسرع به الشّاعر إلى أعراض

1- بشير خلدون. الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلس. ص57.

2- المرجع نفسه. ص62.

النّاس وشعر يتكسب به و ذلك إن يحمل إلى سوق ما يتفق فيها و يخاطب كلّ إنسان من حيث هو، ويأتي إليه من جهة فهمه."[1]

فالشّعر عند عبد الكريم النهشلي من خلال قوله هذا أربعة أقسام:

1- شعر هو خير كله و هو شعر الزهد و المواعظ و المثل العائد.....

2- شعر الظّرف وهو شعر الوصف و النعوت و التشبيه.

3- شعر الشّر و هو شعر الهجاء.

4- شعر التّكسّب.

ومن هنا نلاحظ مدى تأثّر عبد الكريم بنزعته الأخلاقية ووازعه الديني، في تقييمه للشّعر بين ما هو خير كلّه و ما هو شر كله. كما نلمس نظرته الأخلاقية للشّعر في موقفه من الغزل، أورده ابن رشيق في كتابه (العمدة) في خبر أسنده - على الظن - إلى عبد الكريم النهشلي قال: "قال بعضهم أظنه عبد الكريم.... العادة عند العرب أن الشّاعر هو المتغزّل المتماوت، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطّالبة الرّاغبة المخاطبة، وهنا دليل على كرم النحيرة في العرب و غيرتها على الحرم."[2]

و بهذا نلخص إلى أنّ النهشلي بالفعل سار على نهج من سبقه في اتّخاذ المقياس الأخلاقي في المعيار الأول في الحكم على جودة الشعر.

ليحتل بالفعل المعيار الأخلاقي مكانة مهمّة في آداب الأمّة العباسيّة .

1- ابن رشيق. العمدة. ج1/ص120،121.

2- المصدر نفسه. ج1/ص124.

الفصل الثالث:

" النقد العربي القديم و المتعة الجمالية للشعر "

أولا: في صدر الإسلام و عصر بني أمية.

ثانيا: قضية اللفظ والمعنى وموقف النقاد منها.

ثالثا: مقاييس جودة النظم.

أوّلا: في صدر الإسلام و عصر بني أميّة.

1- في عصر صدر الإسلام:

لقد أحدث الإسلام على حد قول الباحث سعود عبد الجابر[1] تغيرا شاملا في حياة العرب على جميع المستويات، وغيّر نظمهم و بدّل في مثلهم، وأخرجهم من الظّلمات إلى النور، فبفضل هذه الرسالة السّامية تغيرت نظرت العرب إلى القيم والأخلاق، فزال بذلك كثير من القيم الجاهلية، لتحل محلّها قيم إسلامية بديلة.

و لنلمس بناء على ذلك تلك التغيرات التي مسّت النقد أيضا، إذ كان مقياس جودة الشّعر في هذه الفترة الزّمنية يكمن في تلك القيم الأخلاقية التي ينطوي عليها، ومن هذه النقطة يتبادر إلى ذهننا هذا السؤال: هل الجانب الأخلاقي هو المعيار الوحيد في الحكم على جودة الأشعار؟ أو بعبارة أخرى: هل عرف في تلك الفترة الزمنية ما يسمّى بالمعايير النقدية الفنيّة في نقد الشّعر.؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال لابد من معرفة أن التشكيل الجمالي في العمل الأدبي يعتبر عنصرا مهمّا و بل جوهريّا فيه، وأنّه من أهمّ الجوانب التي يتوقف عليها مدى نجاح المبدع في نقل تجربته للقارئ أو إخفاقه فيها، فقيمة الأدب بالنسبة لقارئ معين لا تحددها تلك المضامين فحسب ، إنّمـــا لتلك الصياغة ولذلك الجانب الجمالي فيـــه

1- سعود عبد الجابر. النقد الأدبي القديم. أوله وتطوره. الحامد للنشر والتوزيع. ط1. الأردن. 2000. ص17.

أهميّة قصوى، فالمضمون مهما كانت رسالته سامية فإنه لا يمكن أن يؤدّيها في حالة ما إذا كانت اللغة التي يستخدمها رديئة.[1]

وأمام هذه المكانة المرموقة للجانب الجمالي يأتي الإسلام لا معارضا له و بل مشجعا إياه، إذ أنّ القران الكريم أولى لهذا الجانب في التعبير كل الأهمية، كيف لا و هو الجانب الذي تحدى فيه العرب فيه أجمعين.

و كانت أولى الصور التي بينت ذلك الاهتمام الكبير بهذا الجانب في هذه الفترة الزمنية بكلام الرسول عليه الصلاة و السلام: "الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لا يوافق الحق منه فلا خير فيه"[2] فهذا الكلام يحمل في طيآته جانبين من الرؤية إلى الشعر: الجانب الأخلاقي الذي سبق و أن تحدّثنا عنه، والجانب الفنّي الذي تحدد في قوله: "إنّما الشّعر كلام مؤلف" وفي هذه العبارة يكمن الموقف الفنّي، إذ إنّه صلى الله عليه و سلم وضّح أن الشعر ليس أيّ كلام و إنّما هو كلام خاضع لتأليف معيّن وليكون التأليف الحسن بناء على ذلك معيارا من معايير جمال الشّعر، وخلاله يمكن أن نميّز بين الشّعر الجيّد و الشّعر الرديء.

وهذا ما أكّده عليه الصلاة والسلام في حكمه على امرئ القيس قائلا: "إنّه أشعر الشّعراء وقائدهم إلى النار"[3] فعبارة"أشعر الشعراء"هي حكم فنّي تتعلق بتلك القدرات والأدوات الفنية التي يملكها الشاعر،إذ أنّ كلمة "أشعر" كما ذهب إلى ذلك عبد القادر

1- ينظر: عبد القادر هني. دراسات في النقد الأدبي عند العرب. ص95.

2- ابن رشيق. العمدة. ج1/ص27.

3- عبد القادر هني. دراسات في النقد الأدبي عند العرب. ص99.

هنّي تتضمن اعتراف الشّاعر بالإبداع في المعاني و القدرة على صياغتها صياغة رصينة في لغة منحلة و ديباجة جميلة لا يدخلها الاضطراب و الخلل.[1]

و حين ننتقل إلى موقف الخلفاء الراشدين نجد أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه يقول عن النّابغة الذبياني "هذا أحسنهم شعرا و أعذبهم بحرا و أبعدهم قعرا." فهذه شّهادة للنابغة بأنّه شاعر قوي، يجيد اختيار ألفاظه و عباراته، فهو مجيد في شعره فنيّا و معنويّا، كما نجد صورة أخرى لهذا الجانب في وصف عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لزهير بن أبي سلمى بأنه لا يفاضل بين الكلام ولا يتبع حوشيه"[3] والمعاضلة في الكلام هي تعليق الشّعر ألفاظه بعضها تعليقا يفضي به إلى الإخلال بالمعنى وإحداث الغموض في الكلام، أمّا ا حوشي الكلام فالمراد به الألفاظ الغريبة النادرة[4] فزهير بن أبي سلمى عهد إلى الابتعاد عما كان حوشيّا غريبا عن أذهان الناس، وهكذا فإن هذا الكلام يحمل نظرة فنيّة نحو الشّعر والتي تبيّن ماهية المقاييس الجمالية التي اعتمدها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قياس جودة هذا الفن والمتمثلة في كلا من انعدام المعاضلة وعدم استخدام الألفاظ الحوشيّة.

1- ينظر: المرجع السابق. الصفحة نفسها.

2- ابن رشيق. العمدة. ج1/ص100.

3- المصدر نفسه. ص103.

4- عبد القادر هني. دراسات في النقد الأدبي عند العرب. ص102.

وفي السّياق نفسه نجد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه – بنظرته الفنية تجاه شعر امرئ القيس، إذ قال عنه لما سئل عن أشعر الشّعراء: "كل شعرائكم محسن، ولو جمعكم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول، لعلمنا أيّهم أسبق إلى ذلك وكلّهم قد أصاب الذي أراد و أحسن، و إن يكن أحدهم أفضل، فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرئ القيس بن حجر، كان أصحّهم بادرة وأجودهم نادرة"[1] وفي مقياس تفضيل عليّ كرم الله وجهه لامرئ القيس جانب فنّي، أي تلك الميزة الفنّيّة التي يمتاز بها هذا الشاعر.

فهو "أصحّ الشعراء بادرة" أي السبّاق إلى الأشياء وفي ذلك دلالة على الإبداع، وأما "أجودهم نادرة" ففيها دلالة على إتيانه بمعاني جديدة لم يعهدها الناس "فميزان التّقويم هنا يقوم على سبق امرئ القيس الشّعراء إلى جواهر المعاني وابتكارها في طرائق الشعراء على أحسن بديهته التي كانت تسعفه على القول دون كبير عناء."[2]

ومن كلّ ما سبق نخلص إلى أن النّظرة الإسلامية للشّعر لم تكن تقيّم الشّعر بالنظر إلى مدى ملائمة محتواه للأخلاق الفاضلة و للعقيدة السامية فحسب، مع إهمال الجانب الفنّي فيه، بل هي نظرة شاملة جامعة للجانبين، الأخلاق والفن.

1- وليد قصاب. النقد العربي القديم. ص58.

2- - ينظر: عبد القادر هني. دراسات في النقد الأدبي عند العرب. ص100.

2- عصر بني أمية:

أمّا في عصر بني أميّة فقد حظيت المعايير الفنيّة بأهميّة كبرى قياسا إلى ما عرفته في صدر الإسلام، وهذا ما تعكسه تلك الأحكام والآراء النقديّة العديدة التي صدرت عن المتذوّقين للشّعر فكان منهم نقّاد، علماء وخلفاء.

ولعلّ أوّل ناقد يستوقفنا في هذه الفترة الزّمنية وفي البيئة الحجازية تحديدا، النّاقد ابن أبي عتيق عبد الله ابن محمد بن أبي بكر الصديق النّاقد المعروف بكثرة الدّعابة، والمعتمد في نقده على الذّوق المرهف والحسّ الفنّي والبصيرة النّاقدة المميزة بين جيّد الشعر ورديئه.[1]

ولقد أبدى ابن أبي عتيق أحكاما نقديّة عديدة، وكان جلّها موجها نحو ما تحمله الأشعار من المعاني والألفاظ ومن ذلك الوصف الذي أطلقه على صديق عمره، عمر بن أبي ربيعة، فرغم الصّداقة المتينة التي كانت تجمع بينهما، فإنّ ذلك لم يمنع ابن أبي عتيق من أن يلتزم الموضوعيّة في نقد أشعار صديقه، فقال عنه بعد ما سمع له أبياتا: "إنّ لشعر عمر نوطة بالقلب وعلوقا بالنّفس ودركا للحاجة وما عصي الله عز وجل بشعر أكثر ما عصي بشعر بن أبي ربيعة، فخذ عنّي ما أصف لك: أشعر العرب من دقّ معناه ولطف مدخله وسهل مخرجه وانعطفت حواشيه وأنارت معانيه وأعرب عن حاجته."[2]

1- سعود عبد الجبار. النقد الأدبي القديم.ص30.

2- أبو الفرج الأصفهاني.ج1/ص113.

فالمقياس الفنّي في جودة الشّعر في نظر ابن عتيق يكمن في دقة المعنى و لطافة المدخل و سهولة المخرج ووضوح المعاني، و هذا الكلام يتعلق بالمعنى أوّلا، وجودة الصّياغة ثانيا. و يرى الباحث مسعود عبد الجابر في كلام ابن أبي عتيق هذا، مقاييس نقدية جديدة تنتهج منهج التحليل والتعليل وتبيان الأسباب، فهذه سمة جديدة يلمحها في نقد ذلك العصر، و هي بمثابة الخطوة الأولى للنقد المنهجي الذي وجد في العصر الجاهلي.[1] و إذا كان بن أبي عتيق يحتل مكانة مرموقة بين النّقاد في بيئة الحجاز، فإن السّيدة سكينة بنت الحسين لا تقلّ عنه مكانة فلهذه الناقدة نظرة فنّية تجاه الشّعر وممّا يروى عنها أنها تجمع في ضيافتها من الشّعراء منهم : جرير، الفرزدق، كثير عزة، جميل و نصيب، فكانت تسمع من كل واحد منهم ما قاله في الغزل فتخرج له في الأخير وصيفتها وضيئة، لتبين له جانب الخطأ في المعنى وتكافئ فيما بعد كل واحد على حسب إجادته في المعنى الشّعري، فكان موقفها من أوّل شاعر اسمعها أبياته أن سألته: " أيكم الفرزدق؟ فقال:

ها أنا ذا، فقالت : أنت القائل:

هما دلتاني من ثمانين قامة   كما انحط باز أقتم الريش كاسره

فلمّا استوت رجلاي بالأرض قالتا: أحَيّ يرجى أم قتيل نحاذره

قال: نعم، قالت: فما دعاك إلى إفشاء سرّها و سرّك، هلا سترتها و سترت نفسك"[2]

1- ينظر: سعود عبد الجبار. النقد الأدبي القديم. أصوله وتطوره. ص31.

2- المرجع نفسه ص33.

فما عاتبته على الشّاعر إذن، هو إفشاء السّر الذي كان ينبغي ألا يفشيه و بالتالي جاد عن المعنى الشّعري الصحيح.

وللشّعراء أيضا نظرتهم في الشعر، ومن هؤلاء الفرزدق والأخطل، فنلمح النظرة الفنية عند الفرزدق من خلال حكمه على النّابغة الجعدي حين قال عنه: " صاحب خلقان عنده مطرق بآلاف وخمار بواف."[1] قصد بذلك أن شعر النآبغة الجعدي يعلو ويرتفع، أي أنّ فيه ما هو جيد وما هو رديء، ومعناه حكم جرير على الأخطل بأنه يجيد مدح الملوك ونعتهم، إضافة إلى تلك الموازنة التي أجراها الأخطل بين جرير والفرزدق، واصفا شاعريتهما بكون جرير يغرف من البحر والفرزدق ينحت من صخر."[2]

وإذا كان لهؤلاء نظرتهم الفنية فللعلماء واللغويين أيضا نظرتهم، من ذلك ما ورد عن أبي عمر وابن علاء الذي قال عن لبيد بن أبي ربيعة: " ما أحد أحبّ إلي من الشّعراء شعرا من لبيد بن ربيعة لذكره الله عز وجل والإسلام ولذكره الدّين والخير ولكن شعره راح برز."[3] فرغم تعلّق ابن العلاء بشعر لبيد وذلك لما تضمّنه من معاني الخير إلّا أنّه أعابه فنيّا لكون شعره راح برز أي أنّه يتصف بضالة قيمته الفنيّة دون أن يذكر الأسباب.

1- أحمد أمين.النقد الأدبي.دار الكتاب العربي.ط4.بيروت 1967.ص46.

2- المرجع نفسه.الصفحة نفسها.

3- المرزباني.الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء.ص89.

ثانيا: قضيّة اللّفظ والمعنى وموقف النّقاد منها:

من أولى الأسس الفنية التي يبنى عليها النّقد الجمالي عامّة إشكاليّة "اللفظ والمعنى فكانت تبعا لذلك أولى القضايا التي طرحت نفسها على الساحة النقدية وذلك أثناء الحديث عن لغة الشّعر.

ولقد كانت هذه الثنائية سبب في انقسام النّقاد إلى طائفتين :لفظيين أو أنصار اللفظ الذين جعلوا منه الغاية الأولى والوحيدة للبليغ فدعوا إلى العناية به وحده دون سواه ويأتي الجاحظ على رأس هذه الطائفة وليتواجد في الناحية الأخرى أنصار المعنى اللذين جعلوا له المكانة المرموقة والأولى في النّص الأدبي فحمّلوا البلغاء على ضرورة الغوص فيه والبحث عنه، لتتفق الآراء على جعل عبد القادر الجرجاني زعيما عليهم.[1]

وهذه أهم الآراء والمواقف فيما تخص هذه القضية لدى أبرز وأهم النّقاد في الفترة العباسيّة.

1- الجاحظ (ت 255 هـ)

يعتبر الجاحظ من الأوائل الذين أكدّوا أهميّة الصياغة اللفظية وجودة السّبك في الفن الشعري، والانتصار للصياغة هو ما لحظه من موقف أبي عمر الشيباني في تفصيله ليتبين من الشعر بناء على معناها إلّا على أساس جودة صياغتها

1- ينظر: أحمد أحمد بدوي. أسس النقد الأدبي عند العرب. نهضة مصر للطباعة والنشر. ط6. مصر. 2004.ص361.

فاستنكر الجاحظ ذلك ونفى عنهما صفة الشّعر وهذا نصّ القصّة الذي يروي لنا الأحداث بدقّة: قال الجاحظ:

سمعت أبا عمر وقد استجاد من الشّعر وكان في مسجد يوم الجمعة حتى كلّف رجلا بكتابتهما وهما:

لَا تَحْسَبَنّ المَوتَ مَوت البَلى   وَإنَّمَا المَوت سُؤال الرّجَال

كـلِاهُمَــا مَـوْتٌ وَلَـكِــن ذَا   أَفْظَع مِن ذَاك عَلى كُلّ حَال

وذهب أبو عمر إلى استحسان المعنى، وأنا أزعم أن صاحب هذا البيتين لا يقول شعرا أبدا ولولا أن أدخل في بعض القيل لزعمت أن ابنه لا يقول شعرا أبدا، والمعاني المطروحة في الطريق يعرفها العربي و العجمي، والبدوي والقروي وإنّما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ، سهولة المخرج وصحة الطبع وجودة السبك، فإنّما الشّعر صنعة وضرب من النّسج وجنس من التّصوير."[1]

ومراد الجاحظ من كلامه هذا، هو أن الشّعر لا يتميز بتلك المعاني التي يتناولها لكونها في متناول العام والخاص، إذ هي مادة خام أو هي كما عبّر عن ذلك الجرجاني: " مادّة أوّلية كالذّهب والفضّة التي علينا أن ننظر إلى دقّة الصيغة وجودتها "[2] وفي مقدور الشّاعر أن يصبغ منها ما يشاء تبعا لقدراته الفنيــة، وبالتالي فالمعاني مهما كانت قيمتها فهي لن تكتسب مكانتهــا إلا في إطار صياغتهــا

1- الجاحظ. كتاب الحيوان. ج2/ص67.

2- ينظر: حسن حسين الحاج. النقد الأدبي في آثار أعلامه. ص293.

الفنيّة أي بعد أن يندمج كل من اللفظ والمعنى لتخرج في الأخير إلى الوجود في أحسن صورة وأبهى حلّة، وهو مرمى الشعر في نظر الجاحظ من خلال معاني كلامه "جنس من التصوير" هذا الأخير الذي لا يتأتّي إلا بواسطة اللغة والصور البلاغية.

هذه هي إذن الرؤية الفنيّة للجاحظ حول الشّعر، وهي رؤية لم تأخذ باللفظ على حساب المعنى، لأنه لا يوجد روح بلا جسد، وما كان يرمي إليه هو الرؤية بالصياغة، يعني الرؤية الفكرية التي تؤسّس وحدة كاملة من اللفظ والمعنى تأسيسا متفاوتا في القدرة على التأثير.[1]

والصّياغة عند الجاحظ ليست عملية عشوائية، وإنّما لها كيفية خاصة بها، إذ تبيّن أنه ليس الشّأن في المعنى وإنّما: " الشأن في إقامة الوزن وتخيير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وصحّة الطبع وجودة السبك"[2]

وبناء على ما قلناه أعلاه، نتوصّل إلى أنّه أخطأ من أنسب الجاحظ إلى الفئة المنادية بقدسية اللفظ، فهو لم يفصل نظرته إلى الشّعر بين ما يسمى باللفظ وما يدعى بالمعنى وهذا ما دفع بالدكتور مصطفى هدّارة إلى الإشارة أن " كل من القدامى و المحدثين قد أساؤوا فهم مل ذهب إليه الجاحظ، وظنّوا أنّه يفصل بين اللفظ والمعنى، وأنه ينتصر للأول، والحقيقة أن الجاحظ كما فهمه عبد القاهر بحق، ينتصر لفكرة النظم

1- ينظر: المرجع السابق. الصفحة نفسها.

2- الجاحظ. البيان والتبيين. ج1. تح: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. ط7. القاهرة. 1998.ص81.

التي تفصل بين اللفظ والمعنى، والتي تجعل الصياغة محكّ براعة الشّاعر وعبقريته بغض النظر عن قدم المعنى من عصر لعصر"[1]

وهذا الجاحظ نفسه ينفي عن نفسه هدا الاتّهام وذلك بطريقة غير مباشرة، من خلال أرائه الكثيرة حول أهمية المعنى، إذ نجده يشير إلى أنّ الأدب يبلغ هدفه وتأثيره في النّفس إذا كان شريف المعنى بليغ اللفظ، يقول: "وأحسن كلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه...، فإن كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع، بعيدا عن الاستكراه بعدها عن الاختلال مضمونا عن التكلف، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة."[2] فها هو يشيد بأهمية المعنى وهذا دليل على عدم اهتمامه باللفظ إلا لجلاء الصورة الأدبية.

وممّا ذهب إليه أيضا أنه لا بد للألفاظ أن تتلاحم مع المعاني، أي أن تكون الألفاظ خير مترجم للآلام والأفراح، يقول: " إنّ لكلّ ضرب للحديث ضرب من اللفظ، ولكل معنى من المعاني نوع من الأسماء، فالسّخيف للسّخيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية."[3]

1- مصطفى هدارة. مشكاة السرقات في النقد العربي القديم. المكتب الإسلامي.ط3. مصر.1981.ص222،223.

2- الجاحظ. البيان والتبيين. ج1/ص83.

3- الجاحظ. الحيوان. ج3/ص45.

2- قدامة بن جعفر: (326 هـ)

كان قدامة بن جعفر متأثرا جدّا بالثقافة والفلسفة اليونانية، ويظهر ذلك من خلال كتابه (نقد الشعر) الذي ألفه بعدما لم يجد بعد مؤلفا قد تمكن من ضبط القواعد التي تحكم على الشعر فتميز جيده من رديئة يقول في هذا الشأن: " لم أجد أحدا قد وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا."[1] ثم يقول فيما بعد: " فأما علم جيد الشعر من رديئه فإن الناس يخبطون في ذلك منذ أن تفقهوا في العلم، فقليلا ما يصيبون، ولما وجدت الأمر على ذلك وتبيّنت أن الكلام في هذا الأمر أخصّ الشّعر من سائر الأسباب الأخرى، وأن النّاس قد قصّروا في وضع الكتاب فيه، رأيت أن أتكلم في ذلك معالجة للغة الوسع."[2]

ولقد عقّب إحسان عباس[3] على هذا الكلام قائلا فيما معناه أنه يبدو أن قدامة لم يعرف شيئا عن كتاب (نقد الشعر) للناشي، ولم يطلع على كتاب (عيار الشعر) لابن طباطبا العلوي وكأنما قدامة يرمي إلى أنه قد جاء لوضع تلك الأحكام الدّقيقة لتبيان الأشعار الجيدة من الرديئة.

أمّا بخصوص إشكالية اللّفظ والمعنى فيقول قدامة: " ممّا يجب تقديمه وتوطيده قبل ما أريد أن أتكلم فيه أنّ المعاني كلها معرضة للشّاعر وله أن يتكلم فيها فيما أحب وآثر من غير أن يحضر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذا كانت المعاني للشّعر بمنزلة

1- قدامة بن جعفر. نقد الشعر. تح: محمد عبد المنعم خفاجي. دار الكتب العلمية. دط. بيروت. جت. ص62.

2- المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

3- ينظر: إحسان عباس. تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ص178.

المادّة الموضوعة، والشّعر فيها بالصّورة، كما يوجد في كل صناعة من أنّه لا بد أن يكون فيها من شيء يقبل تأثير الصور منها، مثل: الخشب للنجارة والفضة للصياغة، وعلى الشاعر إذا شرع في أيّ معنى، كان من الرفعة والصنعة والرفث والنزهة والبذخ والقناعة، والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة أو يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة."[1]

ومغزى كلامه هذا هو أن للشّاعر القدرة والحركة في تبني أي معنى، لكن شريطة أن ينفرد بطريقة ترجمته.

3ـ أبو هلال العسكري: (395 هـ)

ولصاحب كتاب (الصّناعتين)، أبي هلال العسكري أراء مهمة فيما يخص هذه القضية، يظهر من خلالها ميله الشديد نحو الشّكل، فمقياس جودة الشّعر عنده يكمن في تلك الصورة المدهشة التي تبرز المعاني المقصودة، يقول: "ليس لأحد من أصناف القائلين من تناول المعاني ممّن نقدمهم، والصّب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حلّتها الأولى، ويوردوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حلتها ومعرضها، فإذا فعلو ذلك فهم أحق بها ممّن سبق إليها."[2]

وما كلّ إلا هذا دليلا على نصرته للألفاظ وجودة الصياغة، إذ يرى فيه - أ ي اللفظ - المقياس الأنسب للتّفاضل بين الشعـراء و ذلك لكون المعاني " مشتركة بين العقـلاء

1- قدامة بن جعفر. نقد الشعر. ص65،66.

2- أبو هلال العسكري. كتاب الصناعتين. تح: مفيد قميحة. دار الكتب العلمية. دط. بيروت. 1981. ص217.

فربما وقع المعنى الجيّد السّوقي والبسيط، والزنجي... وإنّما يتفاضل الناس في الألفاظ ووصفها وتأليفها ونظمها."[1]

وإن كان هذا موقفه من المعنى، فهذا لا يعني إهماله وإلغاءه كلية فلهذا الجانب أيضا أهميته التي تتمثل في " أن حاجة صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأن المدار على إصابة المعنى... ولأن المعاني تحلّ من الكلام محلّ الألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتية إحداهما على الأخرى معروفة."[2] وهذا اعتراف جليّ من قبل أبو هلال العسكري بأهمية المعاني التي لا يكون لها وقع في النفوس إلا من خلال جودة صياغتها.

4- ابن رشيق: (456 هـ)

أمّا ابن رشيق فهو يذهب في كتابه (العمدة) إلى ضرورة الرّبط بين اللفظ والمعنى وأن العلاقة بينهما شبيهة بتلك التي تربط بين الجسد والروح، فكل جانب مرتبط بالآخر، ليؤكد تبعا لذلك أن جودة الفنّ الشّعري تكمن في كليهما، وليس هناك ضرورة تحتم علينا تفضيل أحدهما على الآخر، فيقول بصريح العبارة: " اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وبهجته عليه..."[3]

1- المصدر السابق. الصفحة نفسها.

2- المصدر نفسه. ص84.

3-ابن رشيق. العمدة. ج1/ص124.

فالعلاقة التي تربط اللفظ بالمعنى في نظر ابن رشيق، هي علاقة جدلية، وطبيعة الارتباط بينهما عضوية: جسم وروح، فبوجود أحدهما يكمن وجود الآخر.

<u>ثالثا</u>: مقاييس جودة النّظم.

تعتبر نظرية النظم ثاني أهمّ القضايا الفنيّة التي فرضت نفسها على الساحة النّقدية هذا المصطلح - أي النّظم - الذي عرّفه ابن منظور لغة على أنّه: " التأليف وضم الشّيء إلى شيء آخر: نظمت اللؤلؤ أي جمعته في السّلك والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشّعر والنظم بكسر النون: الخيط الذي ينظم فيه اللؤلؤ."[2]

أمّا اصطلاحا، فقد تعدّدت التعاريف والمفاهيم بتعدّد مذاهب النّقاد والبلاغيين، لكن وعلى الرّغم من ذلك خلصوا إلى أن النّظم هو ذلك البناء أو الأداء الذي يأخذ فيه كل لفظ مكانته وميزته من التعبير ليؤدي دلالة أو يكشف عن دلالة كانت خبيئة في الشّعورية."[3]

وقد حدّد النّقاد جملة من المقاييس التي رأوا في وجودها تكمن جودة التأليف، ومنها: المقياس الصوتي، مقياس الملائمة وكذا جودة التأليف.

1- ابن منظور. لسان العرب.مج1. دار صادر للطباعة والنشر. دط. بيروت. دت. ص578.

2- الزمخشري. أساس البلاغة. دار صادر. دط. بيروت. 1979. ص641.

3- جيهان باملود. النظم والبنية بين الجرجاني وتشموسكي. رسالة ماجيستر. الجزائر.2000-2001. ص3.

1- المقيـــاس الصّــوتـــي:

لقد أولى النّقاد للمقياس الصّوتي اهتماما كبيرا أثناء حديثهم عن جودة الألفاظ داخل البيت الشّعري، ومنهم الجاحظ الذي يقول: " من ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه."[1] فعلى حد قوله أن هناك من ألفاظ العرب من لا تكون منسجمة مع بعضها البعض حين دخولها مستوى التأليف أو النظم، مثلما هو الحال في هذا البيت الذي مثّل به، يقول أحد الشعراء:

وقبر حرب بمكـــان قفر   وليس قرب قفر حرب قبر.

فهذا البيت لا يصنف ضمن الشّعر الجيد، لوجود عيب أو خلل فيه، وهو عيب صوتي كامن في تركيبه من ألفاظ متنافرة ومتكرّرة وثقيلة على اللسان: قبر، حرب، قفر، في الشطر الأول وفي الشطر الثاني: قرب، قبر، حرب، مما أدّى إلى ولادة علاقة تنافر بين الألفاظ مثل العلاقة التي تكون بين أولاد العلات فـ " إذا كان الشّعر مستنكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشّعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض، كان بينها من التّنافر ما بين أولاد العلات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا، كان على اللّسان عند إنشاء ذلك الشّعر مئونة."[2]فالانسجام والملائمة بين الألفاظ من معايير جودة الشّعر ذلك أن الكلمة إذا كان موقعها غير مناسب وغير ملائم تجاورها، من الناحية الصّوتية، شكّلتا معا ثقلا على اللسان و كلفت هذا الأخير جهدا كبيرا.

1- الجاحظ. البيان والتبيين. ج1/ص65.
2- المصدر نفسه. ص66،67.

وليكون عنده أجود الشّعر ذاك الذي " إذا رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري الدّهان."[1]

فأجود الشّعر على حد قوله ما تلاحمت أجزاؤه وتناسقت، وحسن سبكها كما وأن أجود الشّعر ما انزلق في مسامعنا بيسر إذا سمعناه، فلا نجد فيه نشازا ولا غرابة فنستحسن نظمه.[2]

فكلّما تحقق الانسجام الصوتي بين ألفاظ البيت الشّعري، كلمّا ارتاحت الآذان لسماع عذوبته، وكلّما كان التنافر بينهما أدّى ذلك إلى استكراههما، فيقول الجاحظ: " وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشّعر، تراها متفقة، ملسا ولينة المعطف، سهلة ورطبة مواتية وسلسة النّظام، خفيفة على اللسان حتى كان البيت بأسره كلمة واحدة وحتى كانت الكلمة بأسرها حرف واحد."[3]

ومن الذين رأوا ضرورة تلاؤم الألفاظ فيما بينها من النّاحية الصّوتية نجد الروماني الذي لاحظ وجود ثلاثة مستويات في تأليف الكلام: إما متنافر أو متلائم في الطبقة العليا، واستشهد للتنافر بنفس المثال الذي أورده الجاحظ قبلا، وهو قول أحد الشّعراء:

وقبر حرب بمكان فقر   وليس قرب قفر حرب قبر

1- المصدر السابق. ص67.

2- جيهان بلمولود. النظم والبنية بين الجرجاني وتشومسكي. ص9.

3- الجاحظ. البيان والتبيين. ج1/ص67.

أمّا عن التّأليف المتلائم في الطّبقة الوسطى، فرأى بأنه أحسنها ليستعين بنفس الشّواهد التي وظفها الجاحظ وهو قول الشاعر:

رَمَتْنِي وَسَتَرَ الله بَيْنِي وَبَيْنَهَا عَشِيَّــة أرَام الكَنَاس رَمِيــم

وليعرّف التلاؤم أوّلا، ثمّ يبيّن الغاية منه ثانيا قائلا: " التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، فكلما كان أعدل كان أكثر تلاؤما."[1]

ليتمّ حديثه بقوله أنّ " القاعدة في التلاؤم حسن الكلام في السّمع، وسهولته في النطق، وتقبل المعنى له في النفس، لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة."[2]

ليكون التلاؤم عنده في مجيء الكلام خفيف الوقع في السّمع، وخفيف على اللسان وخفيف على النفس، فتتقبّله وتفهمه فيكون طريقها إلى الدلالة عليه.

2- مقياس الملائمة:

ومن المقياس الصّوتي، انتقل النقاد إلى الاهتمام بمقياس آخر من مقاييس جودة التأليف إنّه: " مقياس الملائمة ".

وكما اهتمّ الجاحظ بالمقياس الأول،فإنّه اهتمّ أيضا بالمقياس الثاني،إذ أنّه قد ذهب إلى القول بأنّ الكلام الأدبي من النّاحية الفنيّة يتطلب الملائمة بين الألفاظ والمعاني قائلا: " إلّا أنّي أزعم أنّ سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ،وقد يحتاج إلى السّخيـف

1- الروماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تح: محمد خلف الله، محمد زغلول. دار المعارف. ط2. القاهرة. 1968. ص96.

2-المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

في بعض المواضيع، وربما أمتع الجزل الفخم من الألفاظ والشريف الكريم من المعاني."[1]

وإلى جانب الجاحظ، نجد ابن طباطبا العلوي الذي رأى أن المطابقة بين الألفاظ والمعاني من سمات جودة الشّعر يقول: " وأحسن الشّعر ما توضع فيه كلّ كلمة في موضعها حتى يطابق المعنى الذي أريدت له ، ويكون شاهدها معها لا تحتاج إلى تفسير من غير ذاتها، كقول جندب أخت عمر وذي الكلب:

فَأَقْسَمْت يَا عُمَر وَلَوْ نَبَاك   إِذَا نَبَهَا مِنْكَ دَاه عُضَـــــالَا.
إِذَا نَبَـها لَيْـث عَرِيسَـــة   مَقِيتًا، مُفِيدًا نُفُوسًـا ومَــــالَا.
وَفرق تَجَاوَزت مَجْهُولَــه   بِوَجْناء حَرْف تَشْكِي الكلالَا.
فَكُنْتَ النَّهَار بِه شَمْسـه   وَكُنْتَ دُجَى اللّيْل فِيـه الهِلَالَا.

فتأمّل تنسيق هذا الكلام وحسنه، وقوله مقيتا مفيدا، ثم فسّرت ذلك فقالت: نفوسا ومالا، ووصفته: نهارا بالشّمس، وليلا بالهلال فعلى هذا المثال يجب أن تنسق الكلام صدقا لا كذب فيه وحقيقة لا مجاز معها فلسفيا."[2]

فالشّعر الحسن يتأتّى بتنسيق الألفاظ فيما بينها، مثلما هو الحال بين كل من: مقيتا ومفيدا ، نفوسا ومالا ، إذ هناك تلاؤم من حيث الشّكل وتلاؤم من حيث المعنى.

1- الجاحظ. البيان والتبيين. ج1/ص101.

2- ابن طباطبا. عيار الشعر. ص132.

كما ولاحظ التلاؤم في قصيدة السموأل، قائلا عنها: " فانظر إلى استواء الكلام وسهولة مخرجه، وتمام معانيه، وصدق الحكاية فيه، ووقوع كل كلمة موقعها الذي أريدت له، من غير حشد مجتلب ولا خلل شائن."[1] فمقياس جودة الشّعر، إنما هو في مدى ملائمة الألفاظ بعضها لبعض.

وإن كان الجاحظ قد رأى ضرورة تلاؤم الألفاظ مع أخواتها من ناحية المعنى و الجرس الموسيقي، فإنّه رأى أيضا ضرورة تلاؤم هذه الألفاظ مع الأغراض والموضوعات الشّعرية، قائلا: " لكل ضرب من الحديث نوع من اللفظ، و لكل نوع من المعنى نوع من الأسماء فالسّخيف للسّخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل..."[2]

والشّعر في مقدمة الكلام الأدبي، الذي ينبغي أن يحقق فيه الشّاعر تلاؤما بين ألفاظه وبين أغراضه الشّعرية.

ويدعم قدامة بن جعفر قول الجاحظ، مؤكّدا على ضرورة استعمال الألفاظ المناسبة في الأغراض المقصودة، قائلا: " ولمّا كان المذهب في الغزل، إنّما هو الرقّة واللطافة و الشّكل و الدّماثة كان ممّا يحتاج فيه أن تكون الألفاظ لطيفة مستعذبة مقبولة غير مستكرهة، فإن كانت جاسية كان ذلك عيبا، إلا أنّه لمّا لم يكن عيبا على الإطلاق أمكن أن يكون حسنا،إذ قد يحتاج إلى الخشونة في بعض المواضع مثل ذكر

1- المصدر السابق. ص49.

2- الجاحظ. الحيوان. ج3/ص39.

البسالة والنّجدة والبأس والرّهبة، وكان أحقّ المواضع التي يكون فيها عيبا الغزل لمنافرته تلك الأحوال وتباعده عنها، فمن الكلام المستثقل في الغزل قول عبد الرّحمان بن عبد الله القس:

إنْ تَنأ دَارِك لا أمَل تَذكـرَا   وَعَلَيْكَ مِنّـــي رَحْمَة وَسَلَام.

ومن المستخشن قول هذا الشاعر:

سَلَام لَيْت لِسَانا تَنْطقِينَ به   قَبْلَ الذِي نَالَه مِن صَوْنِه قَطْعَا.

فما رأيت أغلظ ممّن يدعو على محبوبته بقطع لسانها حيث أجادت في غنائها له."[1]

فالألفاظ الرقيقة واللطيفة والعذبة هي المناسبة لشعر الغزل.

وعيّب على الشّاعر القس الألفاظ الثقيلة التي استعملها:

إنْ تَنَأ دَارِك لا أَمَل تَذكـرَا.

فعلى الشّاعر أن يختار من الألفاظ ما يتناسب ويتلاءم مع موضوعه. وهذا ما نصح به أبو تمام تلميذه البحتري، بأن يلاءم بين ألفاظه وأغراضه الشّعرية، قائلا له: " فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا."[2] فأوصاه باستعمال الألفاظ الرقيقة لأنّها المناسبة لغرض الغزل حتى يتمكن من التأثير في القارئ.

1- قدامى ابن جعفر. نقد الشعر. ص191.

2- ابن رشيق. العمدة في محاسن الشعر آدابه ونقده. ج2. ص114.

كما نجد الخطّابي يؤكّد على ضرورة توخّي الدّقة أثناء التفرقة بين معاني الألفاظ عند استعمالنا لها، حيث أنّه " في الكلام ألفاظ متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنّها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة والحمد والشّكر... لأن لكل لفظة منها خاصية تتميّز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها."[1]

وتجدر بنا الإشارة في الأخير، إلى ابن وهب الذي رأى أن من معايير جودة الشعر " أن يكون الشّاعر قد عمد إلى معاني شعره فجعلها فيما يشاكلها من اللفظ، فلا يكسوا المعاني الجدية ألفاظا هزلية فيسخفها، ولا يكسوا المعاني الهزلية ألفاظا جدية فيستوخمها سامعها ولكن يعطي كل شيء من ذلك حقه ويضعه في موضعه."[2]

1- ينظر: جيهان بلمولود. النظم والبنية بين الجرجاني وتشومسكي. ص16.

2- ابن وهب. البرهان في وجوه البيان. ص186.

3ـ جودة التّأليف:

يعدّ أبو هلال العسكري، زعيم النّقاد الذين نادوا بحسن النّظم وجودة الرّصف والسّبك فكان مولعا بجودة الصّياغة التي رآها من أهم معايير الجودة الشّعرية، فقد خصّص بابا من كتابه "الصناعتين" للحديث عن كيفية النظم وجودة التأليف ورأى أن أولى خطواته اختيار الألفاظ ووضعها في الموضع المناسب، يقول في هذا الصدد: " وتخيّر الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام وهو أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج، كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه، وإن اتّفق موقعه في الإطناب والإيجاز، وأليق بموقعه وأحق بالمقام والحال، كان جامعا للحسن بارعا في الفضل، وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبيك عن مصادره وأوّله يكشف قناع آخره، كان قد جمع نهاية الحسن وبلغ أعلى مراتب التمام....ومثاله:

وأشارت بأطراف البنان المخضب   وضنت بما تحت النقاب المكتب

وعضت على تفاحـة في يمينـها   بذي أشر عذب المذاقـة أشنـب

وأرمت بها نحوي فقمت مبـادرا   إليها فقالت هل سمعت بأشعـب

فهذا أجود الشّعر سبكا وأشدّه التئاما وأكثره طلاوة وماء...وينبغي أن تجعل كلامك مشتبها أوّله بآخره، ومطابقا هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطواره، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلفقها..."[1]

1- أبو هلال العسكري. الصناعتين. ص159،160.

وعدّ حسن التّأليف مقياسا من مقاييس جودة الشّعر قائلا: " وخير الشّعر ما تسابق صدوره وأعجازه ومعانيه وألفاظه، فتراه ساسا في النّظام جاريا على اللسان ولا يتنافى ولا يتنافر، كأنه سبيكة مفرغة، أو وشي منمّم، أو عقد منظّم من جوهر متشاكل متمكّن القوافي غير قلقة وثابتة غير مرجة، ألفاظه متطابقة، وقوافيه موافقة، ومعانيه متعادلة كل شيء منه موضوع في موضعه وواقع في موقعه."[1]

وهكذا شمل التّأليف كل عناصر الشّعر، من لفظ ومعنى وقافية...، التي ينبغي أن تكون مؤلفة على هيئة مخصوصة، متّسمة بالجمال والجودة ليعتبر الألفاظ العامّية والغريبة ممّا يلحق الرداءة بتأليف الشّعر، الذي هو في نظره " كلام منسوج، ولفظ منظوم، وأحسنه ما تلاءم نسخه ولم يسخف، وحسن لفظه ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفا بغيضا، ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلا دونا، فالبغيض كقول أبي تمام:

جَعَلَ القَنَا الدَّرَجَات للكَذجَات   ذَات الغَيْل وَالحَرجَات وَالأَدْجَال"[2]

ومن الأبيات التي بيّن جودة التّأليف فيها قول النّابغة: "

وَلَسْتُ بِمُسْتَبِق أَخَـا لَا تَلُمْــه   عَلَى شَعث أَيّ الرِّجَال المُهَذّب.

وقول أوس بن حجر:

وَلَسْتُ بِمُخَـابِئ أَبَـدًا طَعَامَـا   حَـذَارِ غَـد لِكُـلّ غَـد طَـعَــام.

1- المصدر السابق. ص425.

2- المصدر نفسه. ص74، 75.

فحين قارن بين هذين البيتين رأى أنهما متناظران في التأليف، إلا أن أوس بن حجر دون بيت النابغة لما تكرر فيه من لفظ - غد - "[1]

كما حرص أبو هلال العسكري على أن يكون التأليف سليما من كل ما يخل به من سوء ترتيب، أو تكرار لفظي غير مناسب، قائلا: " فإذا كان الكلام قد جمع بين العذوبة والجزالة والسّهولة والرّصانة، مع السلامة والصّناعة، واشتمل على الرونق والطلاوة وسلم من حيث التأليف، وبعض سذاجة التركيب، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يرده ، وعلى السّمع المصيب استوعبه ولم يمحه، والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي البشع...، ولا يقبل الكلام المضطرب، إلا الفهم المضطرب، والرؤية الفاسدة."[2]

ومن خلال أقواله هذه نخلص إلى أن أبا هلال ينظر إلى ما يتركه التأليف الشّعري في نفسية المتلقي، فيبين كيف أن الشّعر المنسوج نسجا واضحا، يبعث الراحة في نفسية قارئيه، كيف لا وهو الذي جعل الكلام المنظوم بمثابة " العقد إذا جعل كل خرزة فيه إلى ما يليق بها، كان رائعا في الرأي وإن لم يكن مرتفعا جليلا."[3] فشبه بذلك الكلام المنظوم بالعقد الذي وإن لم يكن باهض الثمن نفيسا، وكانت فصوصه مركبة بتناسق و كانت بهية المنظر، فإنها ستسلب العقول و تسحر العيون بجمالها

1- المصدر السابق. ص71.

2- المصدر نفسه. ص71،72.

3- المصدر نفسه. ص74.

الأخاذ، ولهذا لا يسأل كم ثمنها؟ فالأمر سواء عنده أكانت غالية أم بخسة. المهم أنّ العين وجدتها رائعة، والمهم في الشّعر أن النّفس وجدته جميلا ورائعا.[1]

وثاني النّقاد الذي اهتمّ بجودة الصياغة صاحب كتاب (الموازنة بين البحتري وأبي تمام) إنّه الآمدي، الذي اعتمد على كلّ من قضيّة "اللفظ والمعنى" ، الوزن،... ليفاضل بينهما، وممّا ذكره في تعريفه للشّعر قوله أنّه " ليس الشّعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتّي وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما يسعون له، وغير منافرة لمعناه، فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان لهذا الوصف، تلك طريقة البحتري"[2]

فالحكم على جودة الشّعر حسبه لا يتأتّى إلا لذوي الاختصاص، أو إلا لمن له دراية بخصائص جودة الفن، وفي مقدمتها جودة النظم التي تشكل إلى جانب الخصائص الفنية الأخرى جمالية الشّعر، قائلا في هذا الصدد:" فكيف لم يفعل ذلك في الشّعر لما حسن وزنه وقوافيه، دقيق معانيه وما تشمل عليه من مواعظ وأدب وحكم وأمثال، فلم يتوقف عن الحكم لـه على ما سواه حتى يرجع إلى من هو أعلم منه بألفاظه

1- ينظر: جيهان بلمولود. النظم والبنية بين الجرجاني وتشومسكي. ص11.

2- أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري. تح: السيد أحمد صقر. دار المعارف. ط4. القاهرة. 1992. ص423.

واستواء نظمه، وصحة سبكه، ووضع الكلم منه في مواضعه وكثرة مائه ورونقه، إذا كان الشّعر لا يحكم له بالجودة إلا بأن تجتمع هذه الخلال فيه."[1]

ولقد أبدى عبد القاهر الجرجاني "471هـ" في القرن الخامس الهجري ومن خلال كتابه (دلائل الإعجاز) انزعاجه الشديد من ذاك الفصل بين اللفظ والمعنى، وأحسّ بنظرته النقدية الواعية، والفاعلية الانتقادية الشديدة بخطر هذه الثنائية، التي تبلورت عند ابن قتيبة على كل من النقد والبلاغة، ففي الانحياز للفظ قتل للفكر وهذا على المستوى النقدي، أمّا على المستوى البلاغي فلا يمكن القول بكينونة الفصاحة في اللفظة، إنما تكمن في تلك العملية الفكرية التي تصنع تركيبا من عدة ألفاظ.[2]

وعلى حد قول الجرجاني: " إنّ الفصاحة لا تظهر في إيراد الكلمات ولكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة "[3] فعاب ابن قتيبة ومن سار على نهجه لأنه قسّم الشّعر إلى أنواع: منه ما حسن لفظه ومعناه، ومنه ما حسن لفظه دون معناه، ومنه ما حسن معناه دون لفظه، وأشار إلى أنّ من جاء بعد ابن قتيبة قد ظل ظلالا بعيدا حين أخذ بهذه القسمة على ظاهرها.

1- المصدر السابق. ص413.

2- ينظر: إحسان عباس. تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ص429.

3- عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز. تح: محمد رشيد رضا. دار المعرفة للطباعة والنشر. دط. بيروت.1978. ص120.

كما أنّه لم يغض طرفه عن المنحازين إلى المعنى، فقال: " واعلم أن الدّاء الدويّ والذي أعيا أمره في هذا الباب غلط من قدم الشّعر لمعناه، وأقلّ الاحتفال باللفظ وجعل ما يعطيه من الميزة إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى."[1]

لقد جاء عبد القاهر الجرجاني بآراء جديدة نيرة تعتبر بحقّ أولى الركائز للنظرية الجمالية عند العرب، إذ نظر في الكلمة المفردة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلام إخبارا ونهيا واستخبارا وتعجبا، فوجد أنّها لا تؤدي معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة.[2]

وقد بيّن أن سر الجمال في الكلام لا يكمن في الألفاظ وهي مفردة، وإنّما في طريقة تركيبها في سياقها اللغوي الواحد إذ أنّ هذا الأخير – أي السياق – هو المسئول عن جودتها أو رداءتها: " فقد اتضح إذن اتّضاحا لا يدع للشك مجالا من أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة ولا من حيث هي كلم مفردة، وأنّ الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ.

وممّا يشهد لذلك أنّك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة:

1- المصدر السابق. ص178.

2- ينظر: كريب رمضان، بذور الاتجاه الجمالي. ص224.

تَلَفّت نَحْوَ الحَيّ حَتّى وَجَدتنِي وَجِعْتُ مِنَ الإصْغَاء لَيْتَا وَأَخْدَعَــا.

وبيت البحتري:

وإنّي وَإنْ بَلَغتنِي شَرَفُ الغِنَى وَأَعْتَقت منْ وَرَق المَطَامِع أَخْدَعِي.

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفي من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يَا دَهْر قَوم من أَخْدَعَيْكَ يَفْقِد أَضْجَجَت هَذَا الأَنَــام من خَرقــكَ.

فنجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الرّوح والخفّة والإيناس والبهجة... "[1]

فالألفاظ المجرّدة في نظر عبد القاهر ليس لها قيمة فنيّة جماليّة، ولا يمكن القول لا بجودتها ولا برداءتها، فجمالها وجودتها إنّما يتحققان حين تكون داخل سياق مناسب لها. أو على حسب تفسير أحمد أحمد بدوي لهذه المقولة والذي قال فيما معناه أن الجمال في العبارة يعود إلى أداء الكلمات لمعانيها، وما بين الألفاظ من الاتّساق العجيب. وما الإيناس والوحشة إلا لتلاؤم بين معنى الكلمة وجاراتها أو لتنافر بين معنيين.[2]

فالسّياق إذن هو الذي يتحكّم في مدى جودة ورداءة اللفظة، وبل أكد من أنه لا وجود للفظة حسنة وأخرى رديئة قبل أن تأخذ مكانها في السياق، في قوله: " وهل تجد أحدا يقول: هذه لفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النّظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة،وفي خلافها قلقة

1- عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص38.

2- ينظر: أحمد أحمد بدوي. أسس النقد الأدبي عند العرب. ص358.

ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتّمكن من حسن الاتّفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وإن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأنّ الثانية لم تصلح أن تكون لفقا للتّالية في مؤدّاها."[1]

فلا وجود لقيمة ذاتية للكلمة وهي مجرّدة، مفردة، ما لم تدخل ضمن سياق معين. فهي توصف – حسب رأيه – بالقلق والنّبو أو الفصاحة والحسن على حسب ملائمة معناها لمعاني جاراتها داخل السّياق.

1- عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص36.

خاتمة

الآن وقد وصلت إلى خاتمة هذا البحث، الشّعور ينازعني أنّ هناك جوانب تحتاج إلى تفصيل أكثر وتدقيق أعمق، غير أنّي حاولت ما استطعت أن أقدّم صورة عن موضوع الشّعر بين الوظيفة الأخلاقية والمتعة الجماليّة في النقد العربي القديم.

وختاما لكل ما عرضته أنتهي إلى استخلاص جملة من النتائج أوجزها في هذه السّطور:

لقد توصلت أثناء حديثي عن المعيار الأخلاقي في نقد الشّعر، إلى أنّ هذا المعيار قد تطور وازدهر في فترة صدر الإسلام، إذ حرص الكل على أن تكون للشّعر رسالة سامية ساعية إلى إرساء التعاليم الإسلاميّة والقيم الفاضلة.

أما في عصر بني أميّة لاحظت تراجع الاهتمام بهذا المعيار، إلا أنّ هذا لا يعني إلغاءه نهائيّا، فهذا "ابن عتيق" وهو من النّقاد و "عمر بن عبد العزيز ومعاوية بن أبي سفيان" وهما من الخلفاء، قد أخذوه ـ أي المعيار الأخلاقي ـ بعين الاعتبار.

وفيما يخصّ العصر العبّاسي، توقّفت عند أوّل مُناد بأخلاقيّة الشّعر إنّه "قدامة بن جعفر" ، وإنْ أَوْلى اهتماما بالجانب الفنّي، إلا أنّه لم يهمل الجانب الأخلاقي ليتّضح ذلك في تصوّره لوظيفة الشّعر، فنظر نظرة أخلاقيّة إلى المعاني التي تحتضنها الأبيات الشّعرية خاصة في غرضيّ المدح والهجاء الذي اشترط فيهما صدق القول، ثم يليه "ابن طباطبا العلوي" الذي تجلّت لنا نظرته الأخلاقيّة في حديثه عن المثل السّامية الموجودة عند العرب، وكيف يُبنى فنيّ المدح والهجاء عليهما.

وفي مقابل الحديث عن المعيار الأخلاقي في النّقد العربي القديم، كان لا بد من التطرّق للمعيار الفنّي أيضا، باعتباره مقياسا مهمّا في تقييم الشّعر وتقويمه ويتّصل بخصائص الشّعر الفنية، فلاحظنا كيف أن جلّ النّقاد القدماء يقيّمون الشّعر فنيّا وأخلاقيّا معا، وذلك لاستحالة غض النّظر عن أحد الجانبين.

ففي كل من عصر صدر الإسلام وعصر بني أميّة، سار المعيار الفنّي جنبا إلى جنب مع المعيار الأخلاقي، وكان ذلك أوّل ما استخلصته من قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي يبيّن فيه أن للشعر جانبين: فنّي وأخلاقي. ومؤكدا على أنّ الشّعر يخضع لتأليف معيّن، معتبرا إيّاه معيارا من معايير جودة الشّعر وبل إنّه وسيلة للتّمييز بين جيّد الشّعر و رديئه.

كما تعدّدت في عصر بني أميّة الملاحظات النّقدية الفنيّة التي أبداها كل من شعراء ونقّاد وعلماء تلك الفترة، فكان حكم الناقد "ابن أبي عتيق" ووصفه لشعر "عمر" أوّل حكم فنّي استهلّت به حديثي، فأوضح كيف أن لشعر "عمر" تأثير على نفسيّة المتلقي وذلك لما فيه من جودة الصياغة وحسن التّأليف.

وأمّا الآراء الفنيّة لعلماء هذه الفترة الزّمنية، فيمثلها " أبو عمرو بن العلاء" الذي أعرب عن حبّه الشّديد لشعر "لبيد" لِما تضمّنه من معاني الخير، إلا أنّه قد أعابه فنيّا بكون قيمته الفنية ضئيلة.

وأمّا فيما يتعلق والمتعة الجمالية للشّعر فقد خلصت أثناء حديثي عن كل من قضية "اللفظ والمعنى" وقضية "جودة التّأليف" إلى أنّ كل من خاض البحث فيهما، وإن أبدُوا انتصارهم لجانب معيّن، إلا أنّ ذلك ليس نفيا وإنكارا للجانب الآخر، كما أن

الكلّ ينادي بجودة الصياغة وحسن التّأليف بما يضمن للرسالة دورها التبليغي والجمالي.

وهكذا فإنّ النّقاد القدماء مثلما دَعوا إلى جودة الشّعر معنويّا، دعوا كذلك إلى جودته فنيّا، وفي جودة الشّكل والمضمون تكمن جودة الفنّ ككل، وبجودتهما معا يخلق فن أدبيّ راق قلبا وقالبا.

وأخيرا ونحن في زمن اختلّت فيه الموازين وأصبح يجوز للشّاعر والنّاثر تجاوز المعايير الأخلاقيّة بعدما تجاوز المعايير الفنيّة، وتلتمس له الرخص في أن يكتب ما يشاء وكيفما يشاء، فهل من رادع غير الوازع الديني يمنعه من ذلك يا ترى؟ وأين هي مكانة الأخلاق في زمن فوضى الإبداع؟

ويجدر التنبيه في النهاية إلى أنّه مهما بذلت من جهد للإلمام بجوانب الموضوع، فإنّه يبقى بحاجة إلى مزيد من الدّراسة والبحث ولعل الأيّام تُتيح لي أو لغيري متابعة هذا العمل للتوسّع والإحاطة بجوانبه المتشعّبة، وطَرق موضوع يكون أكثر اتّساعا في هذا المجال.

والحمد لله وما التّوفيق إلاّ من العزيز القدير الرّحمن الرّحيم.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1- أبو عبد الله بن موسى المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، تح: محمد حسين شمس الدين، ج11، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، 1995.

2- أبو العتاهية أخباره وأشعاره، مطبعة جامعة دمشق، 1384هـ-1965م، دمشق.

3- أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، تح: لجنة من الأدباء، دار الثقافة، ط5 بيروت، 1981.

4- أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1992.

5- أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، دط، بيروت، 1981.

6- أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط6 مصر، 2004.

7- أحمد أمين، النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، ط4 بيروت، 1967.

8- الدكتور/أحمد كمال زكي: النقد الأدبي الحديث، دط، دت.

9- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد المجيد، ج1 دار الجيل، ط1 بيروت، 1972.

10- ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، 1982.

11- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج5 منشورات دار الكتاب العربي،دط بيروت 1992.

12- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، طبع في مدينة ليدن المحروسة، بمطبعة أبريل، دط 1902.

13- ابن منظور، لسان العرب، مج1 دار صادر للطباعة والنشر، دط، بيروت، دت.

14- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: أحمد مطلوب، خديجة الحديثي، مطبعة العالي، ط1 بغداد، 1967.

15- إحسان عباس:

أ- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، ط1 عمان، 2001.

ب- رسائل ابن حزم الأندلسي، المجموعة الأولى، دار الهنا، دط، مصر، دت.

17- الإمام أحمد بن حسين علي البهيقي، السنن الكبرى، ج10، دار الفكر.

18- الإمام القرطبي: الجامع في أحكام القرآن.ج: 10، دط، دت.

19- بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر، دط الجزائر، 1981.

20- بهجت عبد الغفور الحديثي، دراسة نقدية في الشعر العربي، المكتب الجامعي الحديث، دط مصر، 2004.

21- تاج العروس للزبيدي. مادة خلق 6.

22- الجاحظ:

أ- البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، ج1-3-5 مكتبة الخانجي، ط7 القاهرة، 1992

ب- الجاحظ كتاب الحيوان ج1 دار الكتب العلمية ط1 بيروت 1998.

24- جهيان بلمولود، النظم والبئية بين الجرجاني وتشومسكي، رسالة ماجستير الجزائر 2000 – 2001.

25- حسن حسين الحاج ،النقد الأدبي في آثار أعلامة، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنشر، ط1 بيروت، 1996.

26- ختير عبد ربي، النقد الأدبي في العصر الإسلامي الأموي، دار الغرب للنشر والتوزيع، دط الجزائر، 2004.

27- ديوان ابن دراج القسطلي: ط1، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق.دت.

28- ديوان صفي الدين الحلي، دار بيروت للطباعة والنشر، 1403هـ-1983م، بيروت.

29- ديوان الفرزدق، ج1، قدم له وشرحه مجيد طراد، 1427هـ-2006م، دار الكتاب العربي، بيروت.

30- الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، د/محمد زغلول، دار المعارف، ط2 مصر، 1968.

31- الزّمخشري، أسرار البلاغة، دار المعارف، دط بيروت، 1979.

32- سعود عبد الجابر، النقد الأدبي القديم، أصوله وتطوره، الحامد للنشر، ط1 الأردن، 2000.

33- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، مطبعة دار الكتب المصرية، 1363هـ-1944م.القاهرة.

34- شرح السنة للإمام البغوي، طبعة المكتب الإسلامي، ج13،دت.

35- صلاح عبد الصبور، قراءة جديدة لشعرنا القديم،دار العودة،ط3 بيروت،1989.

36- عبد الرؤوف أبو السعد، مفهوم الشعر في ضوء نظريات النقد العربي، دار المعارف، ط1 القاهرة، دت.

37- عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد: الفلك الدائر على المثل السائر، دط، دت القاهرة.

38- عبد القادر هني، دراسات في النقد الأدبي عند العرب، ديوان المطبوعات الجامعية، دط الجزائر، 1995.

39- عبد القاهر الجرجانين دلائل الإعجاز، تح: محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، دط بيروت، 1978.

40- عبد الله محمد عبد المعطي: أطفالنا، دار التوزيع والنشر الإسلامية ط2، دت.

41- د.علي عبد المعطي محمد: مقدمات في الفلسفة، دار النهضة العربية، دت بيروت.

42- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، دط بيروت، دت.

43- كريب رمضان، بذور الاتجاه الجمالي في النقد العربي القديم، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، دط الجزائر، 2004.

44- المبرد الكامل في اللغة والأدب، ج1، مكتبة المعارف، دط بيروت، دت.

45- مصطفى هدارة، مشكلة السرقات في النقد العربي القديم، المكتب الإسلامي، ط3 1983.

46- د:وفاء فهمي السنديوني، شعراء صدر الإسلام وتمثلهم للقيم الاجتماعية، ط2 القاهرة، 1995.

47- وليد قصاب، النقد العربي القديم، نصوص في الاتجاه الإسلامي والأموي، دار الفكر، ط1 دمشق، 2005.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع: *الصفحـــة:*

مقدمة.....أ - ث

مدخل: مفهوم الشعر في النقد العربي القديم ..... 1 - 7

الفصل الأول: مفهوم الأخلاق والجمال في النقد العربي القديم..... 8- 21

أوّلا: مفهوم الأخلاق في النقد العربي القديم.....9

ثانيا: مفهوم الجمال في النقد العربي القديم.....14

ثالثا: مفهوم القيم الجمالية للشعر النقد العربي القديم.....18

الفصل الثاني: النقد العربي القديم والوظيفة الأخلاقية للشعر.....22- 50

أوّلا: في صدر الإسلام من الشعر.....23

موقف الإسلام من الشعر.....23

الشعر كرسالة سامية.....28

ثانيا: في عصر بني أمية.....32

الشعر كرسالة سامية.....34

تقويم الشعر أخلاقيا.....36

ثالثا: في العصر العباسي.....41

رأي ابن قتيبة.....41

رأي المبرد.....44

رأي ابن طباطبا العلوي.....45

رأي ابن خرم الأندلسي.....47

رأي عبد الكريم النهشلي.....49

الفصل الثالث: النقد العربي القديم والمتعة الجمالية للشعر.....51 - 81

أوّلا: في صدر الإسلام وعصر بني أمية.....52

في عصر الإسلام.....52

في عصر بني أمية.....56

ثانيا: قضية اللفظ والمعنى وموقف النقاد منه..... 59
رأي الجاحظ..... 59
رأي قدامة بن جعفر..... 63
رأي أبو هلال العسكري..... 64
رأي ابن رشيق..... 65
ثالثا: مقاييس جودة النظم..... 66
المقياس الصوتي..... 67
مقياس الملائمة..... 69
جودة التأليف..... 74
خاتمة..... 82 - 85
قائمة المصادر والمراجع..... 86 - 91
فهرس الموضوعات..... 92 - 94